محمود عمر

سينما غزّة

رواية

دار راية للنشر

محمود عمر/سينما غزّة

محمود عمر

سينما غزّة

روايـة

دار رايــة للنشر

دار رايــة للنشر

حيفا، ص.ب 4524

شارع مسادا 30

هاتف: 4727870 (0)50 972 +

raya.publication@gmail.com

المحرر المسؤول: بشير شلش

◆

محمود عمر

سينما غزّة / رواية

الطبعة العربية الأولى 2015

◆

© جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مُسبق من الناشر.

All rights reseved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted In any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

محمود عمر

كاتب ومدوّن فلسطيني من مواليد مخيم جباليا للاجئين شمال قطاع غزة، 1991. درس الهندسة الطبية في القاهرة ثم انتقل إلى لندن ليدرس السياسة الدولية وعلم الاجتماع. يحرر مدونة سيرة لاجئ ويكتب دورياً في جريدة السفير اللبنانية. "سينما غزّة" هي عمله الأدبي الأول.

والغيابُ لا يدّعي الصور، والصورةُ وحدها
ستربطُ بين القلب والقلب.

سركون بولص

١

خرجت من السينما وأغلقت الباب كالعادة. الهواء بارد وثقيل. شـــددت عليّ معطفي ورفعـــت ياقته. لا أحد في الشارع الواســـع. أعمدة الإنارة مضاءة لكن بلا وهج. المدينة ليست نائمة؛ إنّها مخدرة يتكئ بعضها على بعض. أخرجت علبة الســـجائر وأشعلت لفافة بعد أن قدمت لليلى واحدة. ألقيت نظرة على واجهة السينما. لن يصدق أحد أن مكانًا خربًا كهـــذا يخبئ في بطنه الأعاجيب. لا يهم، ليلى معي ورأت ما رأيت.

شـــاهدنا فيلمًا هنديًا من بطولة أميتاب باتشـــان. تدور الأحداث حول شـــاب فقير يعيش مـــع أمّه المريضة في إحدى الضواحي الهندية ويحلم بـــأن يصير ممثلاً. تحزن أمّـــه لهذا الطموح بعيـــد المنال، وتقنعـــه بالبحث عن وظيفة ثابتة. أثناء بحثه، يلتقي كيشان، بطل الفيلم، بفتاة ثريّة ويقع في غرامها ويعرض عليها الزواج. تصل أخبار علاقة كيشان وآنورادها إلى أخيها رانجيتي الذي يغضب ويقرر إفشال العلاقة بأيّ ثمن.

يلفّـــق رانجيتي لكيشـــان تهمة القتل. يدخل كيشـــان الســـجن وقد حكم عليـــه بالإعدام ويتعـــرّف هناك

على كاران الذي يساعده على الهرب. لاحقًا، يكتشف كيشان أنّ كاران هو أخوه الأكبر الذي كانت أمّه قد طردته من البيت قبل زمن بعيد. يتعاون الاثنان من أجل الانتقام من رانجيتي الذي أودعهما السجن وقام بخطف أمهما وحاول قتلها.

أخذت أدخّن وأنا أقود السيّارة نحو البيت. فكرت في هذا النوع من الأفلام. إنّها أفلام مبتذلة؛ لكن ابتذالها يمنحني شعورًا عميقًا بالرّاحة. وضوح السيناريو وبساطة الفكرة. صراع محتدم يتغلّب فيه الشر على الخير طوال الفيلم قبل أن تنقلب الموازين بأعجوبة في اللحظة الأخيرة وينجح كيشان البطل في القضاء على الوحش رانجيتي.

لو كانت حياتي فيلمًا هنديًا من أفلام الثمانينيات، هل كنت لألعب فيه دور كيشان أم رانجيتي؟ ماذا عن الصراعات الكبيرة، الصراعات التي تربيت عليها، هل كلّها بين كيشان ورانجيتي؟ ألا يمكن لكيشانين اثنين، مثلاً، أن يتقاتلا؟

أعرف الإجابة جيدًا لكنني، مع ذلك، أحاول أن أنساها. فضّلت القيادة في شارع جانبيّ حتى لا أُضطر للمرور على حاجز للشرطة. حواجز الشرطة لا تنام؛ وليلى لا تربطها بي علاقة رسميّة. هذه الفتاة الجالسة بجواري في السيارة، والتي تستطيع أن تعرف ما يدور في خاطري بمجرّد النظر في عينيّ، هي في حكم القانون غريبة

عنّي، لا أعرفها ولا تعرفني.
انعطفت بالسيارة يسارًا فدخلت في شارع ضيّق سرعان ما تذكرت أنني مشيت فيه مع قصي قبل سنوات طويلة. وقتها، دخلنا محلاً للهدايا واشترى لي، بناء على طلبي، صورة لمارلين مونرو.
تظهر مارلين في الصورة وهي ترتدي بنطالاً أبيض وكنزة كحليّة وتجلس على أريكة منشغلة بالكتابة في دفتر أسود. علّقت الصورة على زاوية المرآة اليمنى في غرفتي. بدت لي مارلين، وهي معلّقة على المرآة، أجمل وأسعد امرأة في الوجود. لم أكن أعلم حينها أنّها ماتت منتحرة.
قادني الشارع الضيّق إلى شارع آخر أكثر رحابة. زدت من سرعتي. أخبرت ليلى ونحن نقترب من الوصول إلى وجهتنا إننا يجب أن لا نحدث ضجة ونحن ندخل البيت. أصدرت من طرف فمها صوتًا خفيفًا مستهزئًا، ثمّ طلبت مني ألّا أقلق.
نزلنا من السيّارة وصعدنا الدرج. بعدما فتحت الباب ودخلنا، خلعت حذائي ووضعته على الرّف. أما ليلى فخلعت جزمتها وحملتها بين يديها. مشينا بخطى هادئة نحو الصالون. أمّي نائمة أما مريم فيظهر من تحت باب غرفتها شريط رقيق من الضوء الأبيض.
قطعت الصالون متجهًا إلى باب غرفتي، وقبل أن أفتحه لأدخل، أدركت أن ليلى تخلّفت عني. كانت ما تزال واقفة في مكانها. تتأمّل كلّ ما حولها. كانت هذه أوّل مرة تدخل

فيها مريم البيت الذي أعيـــش فيه. أشرت لها بيدي أن تسرع باتجاهي فأشاحت بنظرها بعيدًا عن الصور المعلقة على الحائط وعجّلت من خطوها.

غرفتي واسعة. سريري كبير إلى حد يسمح بأن ينام عليه ثلاثة أشـــخاص بأريحيّة. المكتَب مصنوع من خشـــب الـــزان ويحوي أربع جوارير مملـــوءة بالمقصّات والأوراق والأســـلاك والقدّاحات والبطاريّات والأدوية. الخزانة كبيرة وتكاد تلامس الســـقف. تطلّ نافذتي على نوافذ العمارة المقابلة ولذا فأنا لا أفتحها كثيرًا. صورة مارلين ما تزال معلّقة على المرأة لكنهـــا بهتت إلى درجة كبيرة. البيت كلّه بهت وانطفأ.

علّقت معطفي في الخزانة، أمّا ليلى فوضعت جزمتها على الأرض ثمّ جلست على طرف السرير. فتحتُ اللابتوب وشغلت أغنية لجورج وسّـــوف. التسجيل قديم لأغنية كتبها شفيق المغربي في أواخر السبعينيّات.

أغمضت عينيّ وشعرت بالخدر يتسرب إلى أطرافي. كدت أغيب عن الوعي.

لم أشعر بليلى تغيّر مكانها إلا بعد أن التصقت بي وطبعت على شـــفتيّ قبلة ناعمة. أحسست أنّ جسدي كان نائمًا واستيقظ.

« يا مولدنة .. يا مولدنة
حبك أسرني .. وهدّني»

***

لم يستغرق إقناع ليلى بأن تذهب معي إلى السينما الكثير من الوقت. استغربَتْ في بادئ الأمر. ربّما اعتقدَت أنني فقدت عقلي وبدأت أهلوس، لكنها سرعان ما وافقت.
يستفيد المرء من مآسيه ولو عن غير قصد. يتعامل معه المقرّبون بحنان فائض، يستمعون إليه بإخلاص ويعبرون عن آرائهم أمامه بكلمات مختارة وصوت منخفض. عرفت هذا عن طريق التجربة. عشته حتى تعوّدت عليه وصرت أفضّل ألا أتذكر شكل الحياة من قبله.
ما كانت ليلى لتقبل بهذه السهولة أن تذهب معي إلى السينما، ثمّ تعود لتقضي الليلة عندي، لولا إحساسها بالشفقة تجاهي. الكلُّ يشفق عليّ. ليلى وعامر ومريم وزملائي في العمل. الكل ما عدا أمّي.
كنت قد استعرت لمشوار السينما سيّارة المدير. أمّا ليلى فقالت لأهلها إنّها ستبيت عند واحدة من صديقاتها. كذبت ليلى عليهم مع أنّها لا تحبّ أن تفعل ذلك. أقدمت لأجلي على هذه التضحية مثلما ضحّى مديري بسيارته ليومين متتاليين.
نزعت عن ليلى ملابسها قطعة تلو قطعة. فعلت هي نفس الشيء معي. وضعت كفي حول رقبتها وقبّلتها بهدوء شديد. كأن هذه هي قبلتنا الأولى. أمسكت بطرف شعرها ورحت ألفّه على سبابتي. ألفُّه ثم أحلّه ثمّ ألفُّه من جديد. وفجأة، انسلّت ليلى من بين يديّ واتجهت صوب السرير. شعرت بالارتباك. أغنية الوسوف انتهت. لم أعد أسمعها.

التفت إلى اللابتوب وشغّلت أغنية جديدة.
كانت ليلى تتمـــدّد ورجلها اليمنى تصنع زاوية حادة على سطح السرير. يتشـــعّب شعرها على المخدة. كانت تتمدد لامبالية بي وبعريها وكأنّها قررت أن تنسى كلّ ما حولها وتغرق في أفكارها الخاصة. وكأنها لم تكن معي، أمامي، في غرفتي، بل تقضي الليلة فعلاً عند واحدة من صديقاتها. بدأت الأغنية تملأ الغرفة. تكسر صمتها. تحشو الهواء العائم فيها بكلمات ناعمة. تضرب موســـيقاها بزوايا الجدران وترتد عليّ. تدخل إلى رأسي لتزاحم صوتًا كنت أظن أنني لن أسمعه مجددًا ما حييت.
صوت يسيطر عليّ وأنا أتأمل المثلث الفارغ بين رجل ليلى المثنيّـــة وبين السرير. أرى المثلث ولا أراه. صوت يتكرر بنسق ثابت. يدقّ مثل عقارب الساعة. صوت يردد كلمة واحدة راحت تكبر وتكبر في رأسي حتى بتّ أشـــعر أنها على وشك أن تقفز من عينيّ وتخرج لتتمشى في أنحاء الغرفة.
صوت يأمرني بفعل ما لا أريد.
صوت يقول«صوّرها».

٢

قُـصَي كان طويلاً وجميلاً. كان نافـذتي على العالم. عند عودتنا،قبـل خمس عشرة سنة،أمسـك بيـدي طوال الطريق من مطار تونس إلى مطار القاهرة وظلّ ممسكًا بها حتى لحظة وصولنا إلى هذا المكان الذي صار بيتي فجأة.

كان والدي قـد طلب من أحـد أصدقائه أن يشرف على تجهيز الطابق الذي اشـتراه في إحـدى عمارات المدينة المبنية حديثًا. كان يرسل إليه الأموال في حوالات ويؤكد عليـه أن يكون سـخيًا في إنفاقه على البيـت. يهاتفه ويسـأله عن كلّ شيء؛ عن لون الدهان وخشب الأثاث وخامة السجّاد ورخابة المطبخ وسيراميك الحمّام.

كان والدي يتعامل مع الأمـر بإخلاص وتفانٍ كبيرين. كان يعتقد أنّ غزّة، بعد بيروت وتونس، سـتكون محطّته النهائيّـة. أنّ تجهيز بيت العائلة فيها هو معركته الأخيرة التي سـتنتهي من بعدهـا كل المعـارك. كان يعتقد أنّه «سيعود» أخيرًا.

لم يعد.

صفّى كل أعماله وتأكد مـن حصولنا على أرقام الهويّات وكل الأوراق الرسـميّة اللازمة، لكنه لـم يعد. أصابته سـكتة قلبية مفاجئة ودفن في تونـس. كان يوم الدفن

ماطرًا، وكانت أمّي الحامل بمريم موشحة بالأسود. الرجل الذي قضى الشطر الأعظم من حياته أسير فكرة صاخبة وبندقيّة،ينتقل عبر الحدود، مات في بيت هادئ في شمال افريقيا مرتديًا بيجامته.

كانت الجنازة متواضعة وعـــدد الحاضرين قليل. لم أكن أرى منهم معظم الوقت غير أقدامهم الغارقة في الوحل. كنـــت أراقب كيف اتســـخت أحذيتهم بالمـــادة البنيّة الدبقـــة. انطبعت تلك الصـــورة في رأسي. وعلى عكس صـــورة مارلين، هذه الصورة لم تبهت. لم تتجعد. ظلّت، في رأسي، صورة على قيد الحياة. أستحضرها فأشعر كما لو أن أبي توفي البارحة.

على الحدود، استقبلنا ضابط طويل القامة، كثيف الشعر، تختفي عيناه وراء نظارة ســـوداء. صافح والدتي مطولاً ثمّ صافح قُصَي وأكد لهمـــا أن التعليمات تفيد بالتأكد من اســـتقبالنا أحسن استقبال، وأن سيارة عسكريّة ستقلّنا إلى البيت. «كان راجل بمية راجل»، قال في وصف والدي وهو يشـــير إلينا كي نتبعه. ولمّا أدار لنا ظهره وبدأ يمشي، رأيت طرف المسدس الأسود المدفون في خاصرته.

مشـــينا وراءه حتى وصلنا إلى ســـاحة مســـيّجة مليئة بالسيارات. في الساحة، نادى الضابط على أحد الواقفين بقرب السياج ثمّ أشار إلينا وقال إنّ هذا المجند سيوصلنا إلى البيت. ركض المجند إلى واحدة من الســـيّارات وأدار محركها ثمّ دار بها نصف دورة حتى أصبحت أمامنا فنزل منها وفتح لنا الأبواب.

كلُّ هذا وقصيّ ما زال يمسك بيدي.
في الطريــق، بدت لي المدينة مقفرة. أشــجار نحيلة على الجانبين ولافتــات معلقة بين الأعمــدة ترحب بعودة القائد ياسر عرفات. حدّقت في شــباك الســيارة باحثًا عن فلسطين التي في مخيّلتي. عن الجبال الخضراء العالية والبساتين وأشــجار الزيتون. لكنني لم أكن أسمع غير صوت الريح ولم أكن أرى غير مساحات مستوية يغلب عليها اللون الأصفر.
توقفت الســيارة عند حاجز على الطريق. تحدث السائق لوهلة مع الجنود الواقفين فأشاروا له بمواصلة المسير.تغيّر المشــهد بعد الحاجز وبدأ البنيان يحجز حصة أكبر فيما أرى. عمارات تظهر صغيرة ثمّ تكبر. عمارات متباينة الطول واللون ولكنها، مع ذلك، متشابهة. كأنّها تنحدر من سلالة واحدة.
ربمــا كان والدي «راجل بمية راجــل» بحق لكنني، على عكس قُصَي، لم أتمكّن أبدًا من التسليم بذلك. تعوّدت أن أرى كلّ مــا له علاقة بالحــرب على أنّه شيء يحدث على مســافة منّي. شيء يمكنني، لبعده عني، أن أجلس وأتفرّج عليه.
تحدث الحرب، تحدث المعركة، وأنا أصوّر من مسافة آمنة.
حــتى عندما كنت أخوض مع قُصَي في فيديوهات حرب لبنان الأهليّة واجتياح بيروت، كان منظر المصوّر الحربي وهو يركض خلف المسلحين أكثر ما يشدّ انتباهي. أتأمّل حقيبته المعلقة على كتفه، ملابسه ذات الألوان الغامقة،

الكاميرا الأنالوج بين يديه، أمّا قصي فينتفض ويصدر أصواتًا عالية مع كل قذيفة آر بي جي تنطلق ويتحيّن الفرصة ليحكي لي عن مغامرات والدي في بيروت، عن الدبابة الإسرائيليّة التي قال له إنه أعطبها على محور خلدة. عن مهارته في القنص وسهراته خلف المتاريس مع رفاقه الذين استشهد معظمهم.

والدي لم يكن يخبرني شيئًا من هذا القبيل. «السّاتك صغير على هالحكي»، كان يقول.

لم أبق صغيرًا. كَبرتُ وصارت الحروب والمعارك من الأحداث التي أُمنح لخوضها وللغوص عميقًا في تفاصيلها تصريحًا مكتوبًا ومختومًا وبطاقة مغلّفة بالجيلاتين أعلّقها حول صدري كقلادة.

«مصوّر صحفي، يرجى تسهيل المرور» مكتوبة بالعربية والانجليزيّة.

أمّا معاركي الشخصية فكانت من نوع آخر. معارك ليس فيها جرحى ولا شهداء. معارك لا يسيل فيها الدم ولا تنهيها وساطات ولا يتخللها اتفاقات هشة لوقف إطلاق النار. معارك ليس فيها أسلحة ولا يتحمس من أجلها قُصَي وكلّ الذين يشبهون قُصَي. معارك لا يستشعر خطورتها إلّا أنا وليلى.

كان ذلك قبل أن يحدث ما حدث وتنتهي المعركة التي غيّرت كل شيء.

***

قُصَي كان يحبّ الحرب. يحبُّ الحديث عنها وعن البنادق.

كان ينظّف صورة والدي المعلقة في الصالون كلّما سنحت له الفرصة. يحضر كيسًا مليئًا بالقطن ويرشّ زجاج الصورة بالماء ويمسحه ببطء في خطوط عموديّة. ينتهي من طقسه ويخطو بضع خطوات إلى الوراء ليتأمل الصورة.

- الله يرحمك

في الصورة، يظهر والدي بشاربه الكثيف وملامحه الحادة مرتديًا قميصًا عسكريًا له جيوب. تظهر في الجيب الأيسر رؤوس أقلام ثلاثة. أحمر. أسود. أزرق. لم يكن أبي يبتسم للكاميرا. لا أتذكر أنني رأيته يبتسم لأيّ شيء. لا أريد أن أظلمه. لعلّه كان يبتسم ولم أره. لم تكن الأعوام القليلة التي عشتها معه كافية لأعرفه تمامًا. لأعرف ما الذي يضحكه وما الذي يبكيه.

الصورة أقرب إلى «البورتريه». عندما كبرت عرفت ما معنى «البورتريه»، وكيف يكون التقاطه، ولماذا يتميّز «بورتريه» والدي المعلق في الصالون بقطعة قماش سوداء على زاوية الإطار الذهبيّ. كبرتُ وعرفتُ أشياء كثيرة. أشياء وددت أن أعرفها، وأشياء تمنيت لو أنّي لم أسمع عنها ولم تخطر لي.

أتذكر مدرس التربية الدينيّة وهو يحدثنا عن الجنّة. «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». في هذا يكمن سحر الجنّة، في هذه الاستحالة التي لا ترحم. إنها مكان مجهول وسيظلّ كذلك. مكان لا يمكن لأحد أن يعود منه بعد زيارة سريعة ليصفه لنا أو

يخرج من جيب بنطاله صورة التقطها فيه خلسة ليقول هاكم؛ هذه صورة من الجنة.
أمّا هنا، على الأرض، فكلّ شيء يمكن له أن ينكشف، كلّ حادثة، كلّ سر مخبّأ وكل مشهد عابر. الأرض ليست جنّة. يمكن لنا أن نلتقط فيها الصور ونعيد التقاطها. يمكن لنا ونحن ندبّ فوقها أن نعرف ونعرف وتتكدس المعلومات والذكريات والروائح والمشاهد في عقولنا التي ما هي إلا مخازن تتفاوت في سعتها وجودة الأقفال على أبوابها.
القفل على باب مخزني ليس ممتازًا. ينكسر في اليوم عدّة مرات، والأدهى أنه يفعلها دون سابق إنذار، دون أن أعالجه بالمفتاح. ينكسر من تلقاء نفسه فتندلق من المخزن كلّ الأشياء.
أصوات رصاص وقذائف، أقنعة مثقوبة من عند الأعين، فناجين قهوة فارغة، نغمة خبر عاجل، سيارات أجرة صفراء، احتفالات، رايات ملونة، جنائز ومسيرات،صوت البحر والطائرات، خيط الدم محاذيًا للرصيف، ركام.
الكثير من الركام.

I

«إننا على يقين مـــن أن قوى الظلام والـــردة والإرهاب عملت كل ما في استطاعتها لضرب هذا الإنجاز التاريخي المرتبط بأعمق مفاهيم الســـلام. إنّ من خططوا ونفذوا الجرائـــم الأخيرة في القدس وعســـقلان وتـــل أبيب لم يكونوا في واقع الأمر يوجهون ضربتهم للإسرائيليين فحسب، وإنما للفلسطينيين كذلك.

كنا جميعًا ندرك أن للســـلام ثمنا وأن هنالك قوى سوف تحاول إغراقه بالدم. واجبنا اليوم أن ندافع عن السلام في وجه الإرهاب وأن نتقدم إلى الأمام. إننا جميعًا شـــهود في هذه الساعات على صنع تاريخ جديد وولادة ديمقراطية جديدة في الشرق الأوسط.

إنها مرحلة جديدة من الانبعاث لفلســـطين. فلسطين الشعب. فلسطين الوطن. فلسطين الكيان المستقل.»

ياسر عرفات في افتتاح دورة المجلس التشريعي. آذار، ١٩٩٦

٣

- بدنا نعمل تقرير عن دور السينما بغزّة. قابلني عند سينما النصر.

لم يكن عندي معلومات كثيرة عن دور السينما في غزّة. أحبُّ الأفلام كثيرًا لكنني لم أحظ بفرصة لأكتشف مشاعري حيال السينما. المفردة في حدّ ذاتها غير مستعملة. وقعها غريبٌ على أذني. دور السينما في غزّة. أيُّ دور وأيُّ سينما؟

مررت كثيرًا أمام «سينما النصر» في شارع عمر المختار. آلاف النّاس تمرُّ من أمامها كلّ يوم. لكنني، مثل الجميع، لم أكن أكترث لوجودها على الإطلاق. لماذا أكترث. إنّها مجرّد مبنى محروق ومهجور. كتلة زائدة من الحديد الذي انحنى وأكله الصدأ. كعكة إسمنتيّة لها واجهة دائريّة علقت عليها أحرف انجليزيّة كبيرة مدهونة بالأزرق. وحده اسمها ظلّ محتفظًا بقوّته. سينما النصر.

في غزة، كل الأسماء لها دلالة،وعلى تلك الدلالة، على تحديد ماهيّتها، دارت معارك.

أسماء الشوارع المكتوبة على المستطيلات المعدنيّة الخضراء من زمن «السلطة» الذي ولّى. أمّا أسماء

الشوارع المكتوبة على المستطيلات المعدنيّة الزرقاء فمن زمن «حماس» الذي حل.
لا تشارك الشوارع الكبرى في المعركة فتظلّ أسماؤها على حالها. أسماء ضخمة لا يمكن لأحد أن يمحوها بجرّة قلم. شارع صلاح الدين، شارع عمر المختار، شارع الوحدة، شارع النصر، شارع الجلاء.
يمكن لشارع واحد أن يحمل اسمين في هذه المدينة متناهية الصغر. كما ويمكن لشارعين متباعدين أن يحملا نفس الاسم. وكأنّ المدينة لها أزمان متوازية تتجاور وتختصم. تطارد بعضها من زقاق إلى زقاق. تصنع تحالفات سرعان ما تتخلى عنها. تتسلّح وتبني المتاريس. وكأنّ غزة، هذه المدينة الصغيرة، لو وقفت قبالة المرآة، فسترى في انعكاس وجهها صورًا لأكثر من مدينة.
أسماء الأحياء جاءت من عالم آخر. أسماء تقف على الحياد. أسماء لم يخترها أحد. أسماء لها جمال غير مقصود يمكنك لفرط التعود عليه أن تمرّ عنه من دون أن تلمحه. حي التفّاح، دير البلح، تلّ الزعتر، حي الزيتون. أسماء قديمة لم تخرج إلى العلن من مكاتب مغلقة. أسماء منحوتة لمناطق يعيش فيها الناس، ساكنين متكدّسين.
سينما النصر، في شارع عمر المختار. لو كان الأمر متعلقًا بي لغيّرت وجهتي، دون أن أغيّرها، باستبدال اسمي السينما والشّارع بأسماء مختلفة. لجعلت السينما، مثلاً، «سينما غزّة» والشارع، مثلاً، «شارع الياسمين».

فكرت كيف أنّ ذلك سيخفف من وطأة كل شيء ويجعل يومي عاديًا لا دخل له بالصحراء الليبيّة ولا بالنصر. هذا النصر الذي لـــن أتعرّف عليه حتى لو جاء وســـلّم عليّ وقبّلني مرّتين على كلّ خد.

رفض ســـائق التاكسي الذي أقلّني إلى السينما السيجارة التي عرضتها عليه. بـــدا لي متعبًا. كان يحكّ لحيته بيد، ويمســـك المقود باليد الأخرى. شـــعرت أنني لو فتحت حديثًا معه فسيســـبّ لي الدين. ربما كان يمرّ في ضائقة ماليّة، أو خالفته شرطة المرور، أو سبق خروجه إلى العمل خناقة كبيرة مع زوجته.

حافظت على صمتي حتى وصلت قبالة الســـينما. دفعت الأجـــرة ونزلت ثمّ أغلقتُ باب التاكسي ببطء شـــديد حتى لا أســـتفزّ السائق. قطعت الشارع صوب سناء التي كانت تقف أمام الســـينما مع رجل قصير القامة يرتدي بنطالاً كحليّ اللون ومعطفًا أسود ويبدو من تقاطيع الجلد في وجهه أنّه تجاوز العقد الرابع من عمره.

ســـلّمت عليهما وأخذت أخرج الكامـــيرا من الحقيبة. نظـــرت إلى مدخل الســـينما حيث الأبواب الرئيســـية مغلقة بالطوب. كانت ســـناء تتحدث إلى الرجل الواقف معنا وتدوّن في دفتر ملاحظـــات صغير. لم أكن أعرف إن كنّا سندخل المبنى أم أنني سألتقط له بضعة صور من الخارج. لو اقتصر الأمر على صور من الخارج فسأحرص على إظهار الأبواب المغلقة.

دخلنا المبـــنى. دخلناه من باب خلفي كانت الطريق إليه مليئة بالقمامة. كان في استقبالنا ساحة مفروشة بأشرطة نيجاتيف صفراء. مئات الأمتار منها ملقاة على الأرض ومتشـــابكة كأنّها طبق ســـباغيتي ضخم. عبّرت عن اشـــمئزازي من المنظر فهزّت سناء رأسها. أمّا الرجل فلم يتحرك. لعلّه رأى هذا المشهد مرات كثيرة.

- يلعن العالم! اطلّع، شوف!

قالت سناء وهي تمســـك بشريط نيجاتيف وتمدّه أمام ناظريهـــا. لم أعرف بماذا أرد. تمنيـــت لو أننا لم ندخل، لو أنّ هذا المكان ظلّ في ذهني محروقًا من الخارج فقط.

- حرقوها في الأربعة وتسعين. قالوا إنّا كنا بنعرض أفلام سكس.

قال الرجل الذي شـــعرت أنّ صوته لائق جدًا على شكله. التقطت له صورة وهـــو يتحدّث أمام الدرج الذي يؤدي إلى غرفة التحكم. بدا لي بحركات جسده والشيب الذي يغزو جانبي رأســـه قديمًا ومحروقًا كهـــذا المكان. ذكّرني بشـــخصيّة ألفريدو في فيلم سينما باردیسو لتورينتوري. في الفيلم، يفقد ألفريدو بصره في حريق السينما. السينما هـــذه احترقت لكنّ أبا محمد احتفظ بعينيه ليشـــاهد ذلك ويروي.

قال إنّ أفلامًا متنوعة كانت تعرض في هذا المكان. أفلام تاريخيّة ووثائقيّة وحربية أنتج أغلبها في مصر والهند، في حين عرضت في بعض الحالات النادرة أفلام تمّ إنتاجها

في هوليوود. وضع يده على الجدار وراح يجيب على أسئلة سناء التي بدت لي ناقمة على كلّ شيء.
رفعتُ الكاميرا وبدأت ألتقط صورًا للمكان. كنت أصوّر بانفعال. شعرت أنّ هذا المكان يشبهني. أنّ بيني وبينه علاقة قربى.
رقّ قلبي.
انتهيت من التقاط الصور وأعدت الكاميرا إلى الحقيبة. ولمّا انتهت سناء من طرح أسئلتها، خرجت أنا وهي إلى الشارع من جديد. وقفنا ننتظر خروج الرجل من داخل السينما. ولمّا خرج، راقبته يقفل الباب الذي دخلنا منه بقفل حديديّ ويضع المفتاح تحت الحجارة المتكدسة عند المدخل. عرضت عليه سيجارة قبل أن نفترق، وعقدت العزم على أنني سأعود.
سأعود إلى السينما.
***
تأخرت عودتي كثيرًا. اندلعت الاشتباكات من جديد وظلّت شوارع المدينة شبه خالية أيامًا طويلة. وصل عدد القتلى إلى ثلاثة موزعين على أنحاء القطاع. سوء الأحوال الجويّة لم يؤثّر على سير المعارك، ولا فعلت الوسائط والمناشدات.
تعرّض مقر الأمن الوقائي غرب غزّة لعدة هجمات من كتائب القسّام، في حين خطفت كتائب شهداء الأقصى عددًا من الفتية في مخيّم جباليا. تقاذف الجميع المسؤوليّة.

كانت أمّي تهاتف قُصي مليون مرة في اليوم الواحد.
اتهم النائب العام وزير الداخليّة بالتراخي وعدم اتخاذ اللازم. ردّ وزير الداخلية الاتهام قائلاً إنّ الأجهزة الأمنية لا تنصاع للأوامر وألقى باللائمة على مؤسسة الرئاسة التي لم يصدر عنها حتى اللحظة أيُّ تصريح رسميّ.
كان قصي يعود إلى البيت مرّة أو مرّتين في الأسبوع. يستحم ويتغدّى ويخرج. كان نزقًا وعصبيًا ويرفض الإجابة على أسئلة أمّي. في أحاديثنا القليلة التي كنا نخوضها وهو ينتظر الطعام، كان يتكلّم بنبرة حادّة عن سير الاشتباكات. يرسم لي خريطة في الهواء ويشرع في تحديد نقاط القوّة ونقاط الضعف. يشرح لي الوضع بحماس شديد.
حاولت غير مرّة أن أجعله يتأنّى، أن يكبح جماح نفسه التي كانت متعطشة لإطلاق النار على كلّ ما يتحرّك.
- الله يرحم تراب أبوك لو كان عايش شو كان رح يرفع راسه فيّ!
- بس انت ما بتقاتل إسرائيل يا قصي. غزّة مش بيروت.
- انت مش فاهم شي.
- في بيت حانون في ولد عمره ست سنين مات!
- هم اللي قتلوه. أنا متأكد! الملاعين أولاد الشرموطة!
- يا أخي اطلب إجازة. أمي هتموت من خوفها عليك
- تقلقش! أنا بسبع ارواح!

كنت أحاول أن أخدش يقينه وأعرف، في داخلي، أنني لن أنجح في ذلك. أنا لا أقدر على قُصَي. أنا وهو نتحدث لغتين مختلفتين. أنا أصوّر، وهو يطلق النار.

لم أكن أصدّق أن له سبعة أرواح، لكنني كنت أعرف أن روحه التي يملكها عصيّة على الكسر. روحه التي رافقت روحي طويلاً قبل أن يصير ضابطًا عظيم الشأن.

المكروه يحدث للآخرين، وأنا عادةً ما أتواجد بقربه لأصوّره إن كان يصلح أن يكون خبرًا في وكالة أنباء. المكروه يحدث في كلّ مكان، لكنه لا يحدث لنا. لا يحدث في «مكاننا». لا يمكن أن يحدث. عندما نسمع في الأخبار عن حادث سيّارة، أو تراشق بالقذائف، أوقصف إسرائيلي، نفترض أنّ هذا يحدث في عالم بعيد موازٍ لعالمنا. إنّها طمأنينة يتحصّل عليها كل أهل المدينة مجانًا. توزّع عليهم بكميات كبيرة. ربّما يكون هذا هو ما يحول دون أن تفقد الناس صوابها وهي تسمع عشرات الطائرات المحملة بأطنان من المتفجرات تحلق فوق رؤوسها. أنّ كل واحد منهم يحسّ في أعماقه بأن الطائرات ستقصف بيوتًا بعيدة وأشخاصًا آخرين.

وحدهم من يُرمى المكروه في أحضانهم يتوقف إمدادهم بالطمأنينة ويبدأ تزويدهم بالحزن. كميات كبيرة من الحزن. عندها، تنفجر الدموع و يجتمع المصورون وتُنصَب بيوت العزاء وتُرفَع راية الفصيل لتخبر عن لون الحزن وعن الجهة التي ينتمي إليها.

نادرة أحزان المدينة التي لا لون لها ولا انتماء.
أمّي كانت حالة خاصّة. منذ إعـــلان نتائج الانتخابات النيابيّة وهي تشـــتم غزّة والســـاعة التي عدنا فيها إلى غزّة. لم تشـــتم الفصيل الذي يقاتله قُصَي، لم تشتم حتى السياســـيين البارزين والمتحدثين باسم الأزمة. تشاهد الأخبار وتشتم المدينة، شوارعها وأزقّتها وطباعها الحادة وتاريخها المليء بالانفجارات. كانت تشـــتم حتّى البحر الذي ما كانت تذهب إليه إلّا فيما ندر.
حاولت مرارًا أن أخفف عنها. مع كل هدنة جديد واتفاق وقف لإطلاق النار أكون أول من يُهاتفها ليزفّ لها الخبر السعيد. لكن ردود فعلها كانت باردة على الدوام. كنت أعزي ذلك إلى مشـــاعرها الفاترة تجاهي، ابنها الأوسط الذي ليس طويلاً ومرحًا كقُصَي. قُصَي الذي خَرجت به من الدنيا.
حـــتى عندما طلبت منهـــا أن تخرج معنـــا، أنا ومريم؛ لتحتفل بتوقيع اتفاق مكة، رفضـــت ذلك، وقالت إنها ستظلّ في البيت لتنتظر عودة قُصَي وتطمئن عليه.
ذهبت يومها أنا ومريم إلى مطعم على الشـــاطىء. سألتها إن كانت تشـــعر أنّ أمّي تقلق على قُصَي أكثر من اللازم فقالت إنّ قُصَي يملأ الدنيا على أمّي لأنه يشـــبه أبي. لأنّه امتداد له.
كانت مريم محقّة. قُصَي هو الذي يســـمح لأمي بأن تستمر في عيش حكايتها مع أبي. هو الذي يمنعها من أن تشـــعر

بأنها فقدت زوجها وعادت إلى غزّة أرملة. هو أشدّنا شبهًا بـــأبي. هو الذي ولد ليلعب هـــذا الدور. هذا الدور الذي صمم على مقاســـه. أمّا مريم وأنا فلســـنا سوى حشو في قصة ما تزال أمّي ترفض التسليم بانها انتهت.

نظـــرت إلى مريم التي تجلس قبالتي على الطاولة. تأملت طريقتها في مضغ الطعام. مريم تأكل مثل القطط. تنحني وتمد كفّها الـــتي يربطها بيدها معصم صغير بالغ الدقة. تبلـــل لقمة الخبز بقليل من الحمـــص ثمّ تضع اللقمة في فمها وتصلب طولها من جديد.

فكّرت أن أغيّر الموضوع فسألتها ممازحًا إن كانت معجبة بأحد ما هذه الأيّام. ضحكت مطولاً ثم سألتني إن كنت أنا معجبًا بأحد هذه الأيّام.

- ليلى. اســـمها ليلى. بتدرس هندســـة. بنحكي مع بعض كتير.

- امم. حلو.

- وانتِ؟

- أنا مش فاضية أعجب بحدا.

- ليه؟

- عندي دراسة.

- عندك دراسة ولا ما بدك تحكيلي؟

- لأ عندي دراسة.

- أوك. بس لو حسيتي يوم انه بدك تحكيلي احكيلي.

- أوك. اطلبلنا كولا.

طلبت من النـــادل أن يرفع طبق المشـــاوي ويحضر لنا الكولا. أشـــعلت ســـيجارة وفكّرت أن أمدّ واحدة على مريم. كنت أبحث عن شـــقّ في الجدار الذي شيدته هذه البنت الصغيرة حول نفســـها. كنت أريد أن أكفّ عن كوني أخاها لأصير صديقها ولو ليوم واحد. ولو ساعتين. شربت الكولا دفعة واحدة فشعرت أنّها نزلت إلى رئتيّ بدلاً من معدتي. أطفأت ســـيجارتي ومشيت إلى الحمام. تبولّت وغســـلت وجهي. ولمّا عدت إلى الطاولة كانت مريم قد طلبت الفاتورة.

٤

وضعــتُ في الحقيبة إلى جــوار الكاميرا كشّــافًا صغيرًا وزجاجة ماء. حاولــت أن أُدخِل فيهــا معطفًا خفيفًا، لكنها لم تتســع له. فتحت النافذة قليلاً وشممت الهواء. الجوّ ربيعيّ ولن أشــعر ببرد يجــب التوقف عنده. كنت أحلّ عقد سمّاعات الهيدفون عندما سمعت طرقًا خفيفًا على الباب.

دخلت مريم وسألتني إن كنت أريد أن أتعشّى مع قُصَي. ركّزت نظري عليها. أجبتها أنني لســت جائعًا وأنني على وشــك الخروج. وبينما كانت يدي في منتصف الطريق إليها لأجذبها إلي، أدارت لي ظهرها وغادرت.

في الصالون، كان قصي يتعــشى ويتفرج على التلفزيون. نادى عليّ وســألني إن كنت أحتاج بعض المال. أخبرته أنني أبلي جيدًا في العمل. قال شيئًا ما عن خطورة مهنتي وقلّة مردودها. هل كان يعي ما يقول؟ يحدثني عن مخاطر مهنتي وهو يتعشى ومسدسه يجاور صحنه على الطاولة؟ تركت قُصَي يكمل وجبته وسألت أمّي الجالسة كعادتها، تحتسي القهــوة وتدخّن، إن كانت تحتاج شــيئًا ما من

الدكّان. قالت لي إنّ قُصَي تسوّق للبيت منذ يومين. لم أرد. هززت رأسي وتوجهت نحو الباب.

وأنا أنـــزل الدرج، وضعت ســـماعات الهيدفون في أذنيّ وتركت للجهاز أن يختار الأغنية التي ستبدأ. قررت أنني سأمشي إلى السينما. لا زلت أتذكر الموضع الذي خبأ فيه أبو محمد مفتاح الباب الجانبي. شيء ما يجذبني بقوّة إلى ذلك المكان الخرب. ربّما يتيح لي الجلوس هناك، حيث لا يمكن لأحـــد أن يعثر عليّ، فرصة للتفكير بهدوء حول علاقتي مع ليلى.

قابلـــتُ ليلى أول مرّة في المركز الثقـــافي الفرنسي. كنت مدعوًا لمعرض صـــور يجمع بينها أنها تحاول إظهار الجزء العـــاديّ من غزّة: أطفال على البحر، مطبخ ضيّق، مطعم فلافل، قسم المواليد في مستشفى الشفاء، أراض زراعيّة في بيت لاهيا، متنزهات وشوارع.

دفعتنـــا الصدفة لتأمـــل الصورة نفســـها. في العادة، أنا لا أبـــادر إلى فتاة بالحديث. أخـــاف أن أُرفض. أرتعب. يمكن لي أن أظلّ مكتئبًـــا أيامًا طويلة لو حدث ذلك. كنت أعيش في مراهقتي خيالات ترغبني فيها كلّ نساء الأرض من دون أن أقول أيّ شيء.

- حلو، مش هيك؟

كانت تلك الكلمات التي خرجـــت من فمي. مالت ليلى برأســـهاَ ناحيتي وأومأت. لم تتحدث. أومأت فحسب. محيّاهـــا فاتن وأنا في حيرة من أمـــري. هل يعني ذلك أن

أصمت؟ هل كانت تحاول صدّي أم أنها كانت، بإيماءتها، توافقني على رأيي حيال الصورة؟
ابتعدتُ عنها ببطء. ومخادعًا نفسي، رحت أتأمل صورة أخرى. لم أكن أرى شيئًا، اختلطت الألوان ببعضها، فقدتُ توازني لكنّ وجهًا صبوحًا اقتحم عليّ المساحة الفاصلة بيني وبين الصورة المعلقة على الجدار وأعاد الأمور إلى نصابها. كان وجه ليلى.
- انت إجمالاً شو رأيك بهيك صور؟
سألتني وهي تنظر في عينيّ وتبتسم ابتسامة لا تنفرج معها شفتاها.
- أحيانًا بيكون فيها أشياء كتير حلوة
- آه، والله؟
- والله.
لم يمض وقت طويل حتى ذاب الجليد بيننا. أبدت اندهاشها عندما عرفت أنني مصور صحفي. «مصور صحفي في معرض صور لزميل منافس؟». قلت لها إنني أحبّ الصور حتى لو لم أكن أنا من التقطها. شعرت أنها اقتنعت، أو أنّها لم تكن تكترث بما يكفي لتطلب مني أن أتحدث أكثر. نظرت إلى شامة بنية مطبوعة على رقبتها وقلت:
- وأنتِ؟
- أنا؟ أنا بدرس في الجامعة
- أي تخصص؟

- هندسة
- مهندسة في معرض صور؟
ضَحكـــت وعَرضت عليّ أن نخرج لندخن ســـيجارة في الحديقة. لم أكن لأرفض. كيف أرفض. شرحت لي ونحن ننفث دخان ســـجائرنا صوب شـــجرة ليمون كيف أنّ غزة مدينة غارقة في بؤســـها وكيف أننا جميعًا مشاركون في جعلها تعتاد على ذلك. وضعت يدها في جيب بنطالها الجينز وقالت:
- معرض صور للجزء العادي من غزة. كله حكي فاضي.
- حكي فاضي؟
- آه. غزّة مش عادية. فش فيها ولا شي عادي. أنا بعرف هالشي. انت بتعرف هالشي. كلنا بنعرف.
- أنا؟ أنا بحاول ما أعرف شي عن غزّة!
- ليش؟
- هيك!
سحبت نفسًا من سيجارتي وقلت :
- طيب. لو المعرض هاد حكي فاضي، ليش جيتي؟
- شو بعرفني ليش جيت!
لم تكن ليلى فتاة عاديّة. كانت قادرة على استفزازي منذ البداية. كانت تتحدّى كلّ شيء أقوله وتتحصن وراء نوع نادر من البرود الذي يمنعني من أســـجّل ضدها النقاط. البرود الذي لا تخجل منه بل تعيش معه، تمشّط له شعره وتقصّ له أظافره.

فكّرت أنّ برود ليـــلى هذا يمنحني إعفاءً من الخدمة. لم تكـــن تتمنّى مني أيّ شيء، لا دعمًا ولا أملاً ولا وعودًا بتغيير العالم. كانـــت لا تمانع وجودي بقربها. تحبّ هذا الوجود من غير أن تعترف وتتـــصرف كما لو أن حياتها ستستمر بي أو من دوني. أراحني ذلك وأغواني.

طلبت منها ونحن ندخن في الحديقة أن ألتقط لها صورة. ربّما كان ذلك أوّل تطور جدي في منحى علاقتنا. عندما رفعت الكاميرا واتّخذت هي وضعيـــة من يعرف أنّه على وشك أن يخلّد في صورة لا مجال لتعديلها أبدًا قلت:

- عارفة إنّه مارلين مونرو كمان كانت بائسة؟

- آه, والله؟

- والله. كتبـــت مرة عن كيف بتحس إنها غير حقيقيّة. مزيفة.

لم ترد. نظرت إلى الأســـفل وحركت قدمها وكأنها تمسح شـــيئًا ما مكتوبًا على الأرض. طلبـــتُ منها أن تركز في عدســـة الكاميرا فرفعت رأسها وحاولت بحركات بسيطة أن تسرّح شعرها الذي بدا لي من غير هذا العالم.

في الصـــورة التي تجاور صورة مارلـــين مونرو على مرآتي تظهر ليلى واقفة، ومن خلفها شجرة ليمون.

٥

هاتفت ليلى لكنها لم ترد. بعثت لها رسالة قصيرة أخبرها فيها أنني سـأهاتفها مجددًا عند منتصف الليل. دائمًا ما نكلم بعضنا عند منتصف الليل.

مشيت زهاء ثلاثين دقيقة حتى وصلت إلى السينما. كان ثمّة قطة تدفن رأسها في كيس قمامة وتعيق الوصول إلى موضع الحجر الذي يخفي مفتـاح الباب الجانبي. الجميع يصرّ على اعتبار هذا المكان مكبّ نفايات. لا ألومهم. أيّ مبنى يحترق ويُترك سيتحول إلى مزبلة.

نهرت القطّـة بيدي كما لو كانت ذبابـة. لم تبتعد عن الكيس، ومن جنبه الحجر، حـتى اقتربت منها وكدت أركلهـا بقدمي. لم أكن لأفعل ذلـك. كنت أريد إخافتها فقط.

كان المفتاح موجـودًا في نفس الموضع الذي خبأه فيه أبو محمّد. تناولته ومسـحت عنه الـتراب. ما أجمل أن تجد مفتاحًـا. المفاتيـح حنونة على عكس الأقفـال. القفل على باب السـينما الجانبي مفتاحه معي وأنا وحدي أقرر مواعيد فتحه وإغلاقه؛ أنا وأبو محمّد. انتصاري الصغير

على باب سينما النصر التي سمّيتها «سينما غزّة».
أخرجت الكشّاف من الحقيبة وركزت بقعة ضوئه على قفل الباب. أدخلت المفتاح في القفل وأدرته فانفتح وصار شكله أشبه بالسمايلي الذي كثيرًا ما نستخدمه أنا وليلى في محادثاتنا على سكايب. دفعت الباب ودخلت.
في الداخل، رحت أعيد رسم المكان في رأسي. أعيد تخيّله. ساحة الكراسي التي يجلس عليها روّاد السينما والتي امتلأت عن آخرها بأشرطة النيجاتيف المغبرة. الشاشة البيضاء التي يعرض عليها الفيلم. السمّاعات وغرفة التحكم التي تخرج منها الصورة شعاعًا من الضوء.
صعدت الدرج إلى غرفة التحكم. كانت ماكينة العرض مثبتة بالأرض وسط الغرفة ومغطاة بالقماش. رفعت عنها الغطاء فانكشفت دوائرها التي التفّ عليها شريط نيجاتيف مقطوع في عدّة مواضع. جدران الغرفة كانت مليئة ببوسترات كبيرة باهتة لأفلام قديمة. بوسترات تشبه بوسترات شهداء الانتفاضة الأوائل.
بعدما اقتحم شارون حرم المسجد الأقصى، اقتحمت بوسترات الشهداء كلّ الشوارع والأزقة. شهداء من حماس، من الجهاد الإسلامي، من الجبهة الشعبية. شهداء نعرفهم ولا نعرفهم. شهداء عن قصد، وشهداء عن غير قصد. شهداء دفنوا أشلاء وشهداء ظلّت أجسادهم متماسكة. شهداء من كلّ مكان ومن كل الأعمار يتحولون بعد أن تقتلهم إسرائيل إلى بوستر معلّق. تسبق أسماؤهم

عبارات من قبيل «الشـــهيد البطل» أو «الشهيد القائد». تتجعد بوســـتراتهم شيئًا فشـــيئًا ويخفت ذكرهم قبل أن تتركز الأنظار إلى دفعة بوسترات جديدة لشهداء جدد.
صور الشـــهداء المختارة لا تكون مختارة حقًّا. يجب أن يظهر في البوستر ما يكفي من ملامح الشهيد حتى نفرّقه عن شـــهيد آخر. الإطارات والعبارات والآيات القرآنية هي التي اختيرت فعلاً. اختيرت مـــرّة واحدة ولم تتغيّر. أمّا صورة وجه الشهيد فقد تكون مقصوصة من صورة أكبر له وهو يلعب كرة القدم، أو يقف أمام باب البيت. صورة الحدّ الأدنى من الملامح. صورة الشهيد البطل.
سحبت كرســـيًا من غرفة التحكم ونزلت به إلى وسط الســـاحة وجلســـت. أخرجتُ زجاجة الماء من الحقيبة، شربت حتى ارتويت. أشعلت ســـيجارة ونفثت دخانها إلى الأعلى. بـــدا لي الســـقف بعيدًا جـــدًا، أبعد من أن يصل إليه ضوء الكشّاف. فكّرت في مريم وفي قُصَي وفي عامر. ســـاعة الهاتف المحمول تشير إلى الثانية عشرة إلا دقيقتين. فتحت قائمة الأســـماء. نزلت بالمؤشر إلى اسم ليلى وطلبتها.
بعـــد الرنة الثالثة، جـــاءني صوتها. قالـــت «ألو» لكنني عجزت عن الرد. كنت أســـمع صوتهـــا بوضوح لكنني فقدت القدرة على الكلام. وقفت وأنا لا زلت أمســـك بالهاتف المحمول وأضعـــه على أذني. درت حول نفسي، حاولت اســـتيعاب ما يحدث. لم أقدر. حاولت أن أفتح

فمي. أن أقول أيّ شيء.
كان ما يحدث قفلاً ضيّعت مفتاحه. أغمضت عينيّ عدة مرات. لم يختف المشـــهد، لم يتغيّر. أنا أحلم، لابدّ أنني أحلم. صوت لهاثي كان مرتفعًا، وقلبي، قلبي ماذا؟
ســـقط الهاتف المحمول من يدي وارتطم بالأرض. هذا مســـتحيل. فتحت زجاجة الماء وسكبت كل ما فيها فوق رأسي. شـــعرت بالبرد. كان يجب أن أحضر معطفي. هناك ســـجاد تحت قدميّ. خـــارت قواي وصـــار لزامًا عليّ أن أجلس. ارتميت فوجدت نفسي وقد سقطت على مقعد واسع محشوّ بالإسفنج والشاشة الكبيرة أمامي يظهر عليها عد عكسي.
أرقام كبيرة تحتل وســـط الشاشـــة. أرقـــام كبيرة عليها إطار أبيض مزدوج. أرقام تظهـــر وتتناقص. ٥، ٤، ٣، ٢، ثم بدأ الفيلم. بدأ الفيلم لأنني في السينما، السينما التي حرقوها. تكشّف لي الســـقف الذي زرعت فيه لمبات خفيفة الإضاءة. اختفت شقوق الجدران. كل المقاعد من حولي فارغة، الجو هادئ ولا صـــوت غير صوت الماكنة القادم من غرفة التحكم.
لم أستطع التركيز على الشاشة. قمت من مكاني بعد جهد جهيد. درت حول نفسي. تلمّست الكرسي ورحت أسير، ببطء شديد، في المسافة الفاصلة بين الكراسي. الإضاءة خفيفة وصوت الفيلم يعلو. حاولت أن أستيقظ. قرصت يدي في أكثر من نقطة لكن شيئًا لم يتغير.

جلست على المقعد وأغمضت عينيّ. تمطيّت. أحسست أن قلبي بدأ يرجع إلى مكانه. خفّ اضطرابي وبدأت أرى الأشـياء. أراها غاية في الوضوح. ألمسـها فلا تعبر منها يدي. ألمسـها فأتأكد أنها موجودة. أنّها ليسـت سرابًا. الجدران والمقاعد والسجاد والشاشة التي يسقط عليها شـعاع الضوء. وكأن عود الثقاب لم يشـتعل. وكأنّها لم تحترق.

عادت السينما إلى الحياة.

٦

عامر يريد تحرير فلسطين. تحريرها بدون قيد أو شرط. تحريرها دفعة واحدة لو أمكن. من رأس الناقورة حتى رفح. هذا هو غرضه الأساس ومحور كلّ أحاديثه.
عندما تعرفت عليه قبل سنتين بدا لي مرحًا للغاية، يسخر من كلّ شيء ويداه في حالة حركة دائمة. تصادقنا لأننا لا نشبه بعضنا. أعني، أنا أيضًا أريد لفلسطين أن تتحرر، لكن ليس عندي حماسة عامر.
عندما يحدثني عن الكفاح الشعبي وجبال إفريقيا ويستحضر قصصًا بطوليّة من أزمان غابرة أحسّ بالتّيه والدهشة. أحترم شغفه ولكنني لا أتمنّاه لنفسي. ما يضمن استمرار علاقتا وحيويّتها ويعدنا بضحكات غامرة في كلّ لقاء هو تشابه آرائنا في كلّ ما ليس له علاقة بالقضيّة.
القضيّة ثقب أسود. هذا ما شعرت به بعد اندلاع الانتفاضة. انتشرت المواجهات في كل مكان وتركزت في غزّة عند حاجزي المنطار والطواحين. كنت لا أزال في الجامعة والتصوير لم يكن عملي الفعلي بقدر ما كان

هواية لازمتني منذ الصغر.
كيف تعمل الانتفاضة؟ كيف تبدأ؟ ما الذي يحكم تسارعها؟
اندلعت الانتفاضة الأولى لأنّ سائقًا يهوديًا دهس بشاحنته عمالاً فلسطينيين. كانت الشائعات تقول إنّ السائق استهدفهم كي ينتقم. شهدت تلك الفترة الكثير من حوادث السير التي راح ضحيتها فلسطينيون وإسرائيليون ولم يسفر عنها أي حراك شعبي عارم. أمّا دهس العمال فاكتسى صفة الفرادة لأن انتفاضة اندلعت على إثره.
- انتفاضة الثمانينيات، انتفاضة الحجارة، مش «الانتفاضة الأولى»
- ايش؟
- ما تسميها الانتفاضة الأولى. هيّ مش الأولى. احنا بننتفض من قبلها بكتير.
- طيّب طيّب.
يحتسي عامر قهوته ويشعر بأنّه حقق إنجازًا بأن صحح لي مسمّى الانتفاضة. عامر تهمّه المسميات كثيرًا. حسنًا، هذه المرة معه حق. الفلسطينيون ينتفضون منذ زمن، هذه هيّ الحقيقة.
يقطع صوت عامر عليّ تركيزي.
- بشو تفكر؟
- بفكر إنّه إحنا بننتفض من زمان وعلى حطّة إيدك.

- كل انتفاضاتنا تعرضت لخيانات. انتفاضة الثمانينات لولا زلمتك كان ممكن تستمر.
- زلمتي؟
- آه، عرفات اللّي رجّعك!
ألم أقل أنّ عامر يسخر من كلّ شيء؟ لا يملّ من تذكيري بأنني من «العائدين»، ممن قدموا إلى غزّة بعد اتفاق أوسلو. الاتفاق الذي تمّ توقيعه في حديقة البيت الأبيض. الاتفاق الذي صافح فيه ياسر عرفات إسحاق رابين. أو بالأحرى، بادر إلى مصافحته.
يقول عامر ذلك عن طيبة قلب، لا أزعل منه. أزعل من الكلمة. أنا من العائدين لأنهم عادوا مع عرفات، عادوا مع السلطة، لا لأنهم عادوا إلى قراهم الأصليّة. هذه فئتي التي أتبع إليها.
في غزّة ثمة فئات عديدة. هناك «الغزازوة»، وهم أهل غزّة الأصليين. وهناك «المهاجرون» وهم من أجبروا على الخروج من أراضيهم أيّام النكبة. كما وتنقسم الفئة الواحدة إلى عدّة فئات فرعية؛ فالمهاجرون منهم الفلاح والمدنيّ والبدويّ ولكلّ خصوصيته. هذا كلُّه في غزّة الصغيرة.
أبلع الغصّة وأحاول فتح موضوع آخر مع عامر. أتأمّل سارية العلم في المدرسة التي تقابل المقهى. لو أخبرت عامر عن السينما، هل سيصدقني؟
أنا نفسي أختبر لحظات أعتبر فيها ما حدث خيالات

أنتجها عقلي، خدعة صنعتها ووقعت ضحيّتها. لكن كيف؟الصور التي التقطتها للسينما وقد عادت إلى حالتها الأولى لم تُظهر شيئًا، كانت كلها صور بيضاء. عدت إلى البيت ليلتها دون أن يكون بحوزتي أيّ دليل على ما حدث. كيف سأقنعه لو أخبرته؟

- عامر، بتحبّ السينما؟
- أي سينما؟
- السينما، الفن السابع، الأفلام، بتحبها؟
- انت فايق ورايق اليوم!
- جاوبني يا عمّي، شو بتخسر لو جاوبتني؟
- طيّب. آه، بحبّ السينما.
- بتعرف سينما النصر اللّي في شارع عمر المختار؟
- المحروقة؟
- آه
- شو مالها؟
- شو رأيك نروح عليها؟
- نروح شو نسوّي؟
- لو قلتلك إنه السينما بتشتغل. أو خلينا نحكي بأوقات معينة بترجع بتشتغل. بتروح معي نحضر فيلم؟
- انت مجنون. وحياة إمي أنت مجنون.
- مجنون ليه؟ أنا بسألك سؤال بسيط
- اسكت!

أشيح بنظري عنه وأعود لتأمل العلم المرفوع على

السارية. السماء متنازع عليها بين الأزرق والأبيض. لو سلّموني غزة بضعة أشـــهر فسأجعل منها مدينة مختلفة تمامًا. في غزّة التي أسيّرها أنا لن يُطلَب من أحد يتحدث عن السينما أن يســـكت بل أن يستفيض. البحر قريب لكنّ رائحته غائبة.

مجنـــون؟!، هم المجانـــين، كلّ أهل هـــذه المدينة مجانين متدافعين في مساحات ضيّقة.

دفعت حسابي وتوجهت إلى المكتب وقبل أن أبتعد سألني عامر بصوت ساخر إن كنت ذاهبًا إلى السينما.

- رايح ع المكتب. تاركلك القهوة وماشي.

ضحك ضحكته المعهودة ولوّح لي.

اســـتمعت في الطريق إلى أغنية لا تفشل أبدًا في إبهاجي. كنـــت أمشي متأكدًا من أن قدمي لا تقطع الحدّ الفاصل بين بلاطتين على الرصيف بل تهبط في المنتصف. أمشي خفيفًا وأدندن.

«أنا قلبي مزيّكا بمفاتيح
من لمسة يغنيلك تفاريح
مع إني مفطرتش وجعان
ومعذّب ومتيّم وجريح
بأتنطط وأتعفرت وأترقوص
كده هو كده هو .. كده هو».

٧

أطلّ من مكتبي في الطابق الحادي عشر من برج الغفري على شوارع رئيسة وأرى رقعة كبيرة من المدينة. غابة من الأسمنت تكبر وتتشعب. عمارات تلتصق ببعضها مثل تلاميذ فصل دراسيّ مزدحم. بعض العمارات لها قمّة هرميّة من القرميد الأحمر. أحبّ القرميد لولا ارتباطه بالمستوطنات. فككوا المستوطنات في غزّة، لكنها لم تفكك في رأسي. ما تزال قائمة ومحروسة بالكاميرات والأسلاك الشائكة.

كم طائرة عبرت سماء هذه المدينة؟ كم صاروخ؟ كم عصفور وكم غيمة؟ ولماذا أسمي، حالي حال الجميع، السماء التي فوقها «سماء غزّة»، والبحر الذي على غربها «بحر غزّة»، رغم أن السماء والبحر هما السماء والبحر، وليس عندي ولا عند غيري صكوك ملكيّة؟

هل نجحوا، على اختلاف لغاتهم وأديانهم ومساقط رأسهم، من الإسكندر الكبير والفراعنة والعثمانيين والإنجليز وحتّى أولاد عمّنا الذين طالت قعدتهم، هل نجحوا في تقطيع السماء وتشقيفها كما يفعل نابلسيّ

ماهر بصدر كنافة؟

هل هذه هي الإمبريالية التي يتحدث عنها عامر طوال الوقت؟ ماذا عن البحر؟ لماذا أفكر فيه باعتباره بحيرة؟ مساحة واسعة من الماء الذي وجد نفسه مصادفة في هذا المكان مثلما حدث معي؟ لماذا أقف عاجزًا عن تصديق أنّ لبحر غزّة شاطئًا آخر؟

كانت أمّي تشغل على مسجّلتها ماركة Panasonic أغنية «يا بحريّة هيلا هيلا» كثيرًا. كان ذلك قبل أن تندلع الانتفاضة. الأغنية في حدّ ذاتها لم تكن تخاطب شيئًا في داخلي، لكنها كانت تفعل ذلك مع أمي. ربّما لأن البحر حملها من نقطة إلى نقطة. من ميناء إلى ميناء. كانت تسمعها على الشرفة وتحتسي القهوة. لا أعرف إن كانت تبتسم وقتئذ أم تعبس.

العمل مع الوكالة البريطانيّة مريح للغاية والراتب مجزي. لا يمكنني التذمّر، أقلّه ليس بشؤون تتعلق بالمال والمخزون الوافر من الكحول. هذا المخزون الذي كنت لأعيش الويلات لو حاولت العثور عليه في مكان آخر. نشرب أنا والمحرر اللندني نخب كلّ شيء وأي شيء. نشرب في صحة خططنا للقيام برحلات حول العالم. أضرب كأسي بكأسه وأنا أتخيلني في روما أو براغ أو باريس وليلى تتعلّق بكتفي وترتدي فستانًا قصيرًا. أحبّ الفساتين القصيرة التي لا ترتديها ليلى إلا في مخيّلتي أو على سكايب.

أحبّ رائحة ليـــلى. أحبّ طريقتهـــا في المشي وفي شرب الشـــاي. أحبّ مواعيدنا في المقاهي وقبلاتنا المستعجلة في مصاعد الفنادق. ننزل من الطوابق العليا إلى الطابق الأرضيّ. وإذا لم يكن ثمّة أحد في انتظار المصعد، نعيد الكرة من جديد ونظلّ نعيدها إلى أن ينفذ حظنا.

أحبُّ مشاويرنا في شارع فهمي بيك وسوق الزاوية الذي مـــا دخلناه إلا وأكلنا سندويشـــات الفلافل من مطعم عكيلة. أحبُّ أوقـــاتي معها، وأحبّ تعامـــل أصدقائنا المشتركين معنا على أننا كيان واحد. نأتي معًا ونغادر معًا. علاء وليلى. ليلى وعلاء.

أحبُّ كلّ ذلك. لكن هـــل أحبّها هي؟ هل أحبُّ ليلى في حدّ ذاتها؟ لا أعلم.

أشـــعر أنني لو اعترفت بحبّي لها، لو سلّمت بأنّه أمر واقع، فهذا يعني مزيدًا من الحصار، مزيدًا من فقدان السيطرة، ومزيدًا من الخطر. ومع ذلك أفكـــر أنني، فيما لو كنت أحبّ ليلى، فهذا يستلزم أن أحبّ حصارها. أن لا أمانعه، وأن أتعلّـــم كيف أتحايل عليه وأتعايش معه. أليس هذا هو الحبّ؟ ألا تحبّ أمي بيروت رغم أنها حوصرت فيها؟

أنا أعيش في غزّة. تحـــاصرني إسرائيل من كلّ اتجاه. من البرّ والبحرّ والجوّ. لكـــنّ إسرائيل لا دخل لها بعلاقتي مع ليلى، علاقتي بليلى تعنيني أنا وليلى. هذا هو المفترض. الحبر على الـــورق. ولكن ماذا لو قصفت إسرائيل منزل ليلى؟ عندها ســـتموت ليلى، وتنتهي هـــذه العلاقة نهاية

مأساوية. ماذا لو قصفت إسرائيل منزلي؟عندها سأموت أنا وستنتهي العلاقة نهاية مأساوية.

يزداد تورطي مع ليلى بعد كل مكالمة هاتفيّة. بعد كل تبادل للهدايا. بعد كلّ كيس مكسّرات نتسلّى عليه ونحن نتأمل أمواج البحر. بعد كلّ مرّة ألمح فيها خيط صدريتها تحت الكنزة أو أتأمل مؤخرتها وهي تستأذني وتذهب إلى الحمام. أحاول أن أشيح بنظري، لكنني أفشل وأضعُف ويكبر حصاري فوق الحصار.

استشعر المحرر ذو العيون الزرقاء شرودي فسألني إن كان كلّ شيء على ما يرام. أخبرته أنني أفكر بعلاقتي بهذه الصبيّة. ابتسم وسألني إن كنت أحبها. قلت له أنني لا أعلم فقال إنّ هذا طبيعي.

ربّما يكون محقًا. ربّما يكون من الطبيعيّ أن لا أعرف إن كنت أحبُّ ليلى أم لا أحبُّها. ربّما هكذا تحدث الأمور خارج غزّة. في العالم الطبيعيّ. سألته إن كان قد عايش هذه الحالة من قبل فأجابني قائلاً:

- آه، أكيد. في النهاية، الناس أنواع.

- أنواع؟

- تخيل معي خط إنتاج في مصنع. لا بدّ أن يكون هنالك نسبة خطأ مهما سيطرت الآلة على عملية الإنتاج. سيكون هناك منتجات لا تلبي المعايير، ينقصها شيء أو يزيد فيها شيء. وهذا ينسحب على الناس. هناك أشخاص تعرف ماذا تريد ومن تحب وهناك أشخاص لا

تعرف مـــاذا تريد ومن تحب. الموضوع طبيعي. دعك من ذلك وحدثتني عن يوميات العلاقة؟ هل تمتعك رفقتها؟

- جدًا. لكن الأمور أعقد من ذلك بكثير.

- آه. الأمور دائمًا أعقد.

- آه. دائمًا.

رفع المحرر الشمل كأسه عاليًا وقال بإنجليزيته المحكمة، وبصوتٍ عال: «دائمًا، دائمًا!»

٨

ما الذي يحدث أولاً، الاشـــتباك أم المؤتمر الصحفيّ؟ هل تجتمع البنادق قبل الكامـــيرات أمّ أن العكس هو الذي يحصل؟ أقلّـــب الصور أمامي فأضيع. أشـــعر أنّ ذاكرتي ليست على ما يرام. أنّ فيها نقاطًا معتمة كثيرة. عشرات الصور الملتقطة في أماكن مختلفة. عشرت الوجوه التي لا أتذكر أين رأيتهـــا ولماذا التقطت لها صورًا. أحاول أن أنظم مجرى الزمن. أن أتذكر التواريخ.

بعد أقلّ من شـــهر على توقيع اتفاق مكة، فتح مسلحون من حركة فتح النار على وزير الأسرى فردّ حرسه بالمثل. الاشتباك المسلّح في طوباس لم يكن إلا الحبة الأولى في مسبحة ظهر أنها انفرطت أو تكاد. اندلعت اشتباكات في كلّ مكان. في مخيم جباليا وفي بيت لاهيا. في غزة ورفح وخانيونس.

أركض خلف الأخبار. ألتقطُ صورًا لقادة أمنيين ونوّاب وشخصيات اعتباريّة وأعضاء في حكومة الوحدة الوطنية. أضبط «الفوكس» وأفكّر في كم الاتهامات المتبادلة بين الطرفين. كلّ طرف يصر على أنّ العلة تكمن في الطرف

الآخـــر. كلّ طرف يتحدث عن المظلوميّة ويعرض صورًا لاقتحام مقرات ومساجد وإعدام على الحواجز.
وحدها سينما غزّة تبدو خارجة عن السياق، منزوعة من الســـلاح، حقلاً بلا ألغام. أزورها عند منتصف الليل وأشـــاهد الفيلم الذي تختاره لي الماكينة. أشاهده إلى آخر لقطة، إلى أن يذوي تمامًا وتعود الشاشة أمامي لتغرق في العتمة.
كلّ أفلام ســـينما غزّة تنتهي نهاية ســـعيدة. حتى عندما يصاب البطل بمرض عضال، أو يطلق أحدهم عليه النار في صدره، فإنه يفيق من الغيبوبة ويتماثل إلى الشـــفاء في المشـــاهد الأخيرة. لا ينتهي الفيلم إلا والنهاية السعيدة قد تحققت.
ليس ثمّة نهاية ســـعيدة في آخر المشوار. مشوار النضال أقصـــد. إنّه طريق مخادع وملتوي، لكنه لا يفضي إلى أيّ شيء مغايـــر. العازف الأمريكي مايلـــز ديفز له ألبوم عنوانه «سبع خطوات إلى الجنّة». تحرير الوطن يمكن أن يكون ألبومًا عنوانه: سبع خطوات فحسب.
تنصرني الســـينما وأنصرها. عندما أجلس في منتصف القاعة لأراقب العدّ التنازلي الذي يســـبق عرض الفيلم أشـــعر كأنني جنين في بطن أمّه. تحميـــني الجدران من الخارج، مـــن كلّ ما فيه. أقفز فـــوق كلّ حاجز للشرطة والأمن الوقـــائي، أختفي عن أعين كتائب القسّـــام ولا تراني طائـــرات إسرائيل. أذوب في بطن الســـينما مثلما

تذوب حبّة سكر في فنجان شاي.
أتمنّى لو أجلب قُصَي معي إلى السينما،وأمّي ومريم وليلى وكلّ أصدقائي. هنالك متسع لنا جميعًا. أتمنى لو أدحش غزّة كلها، بكل تاريخها القديم والمعاصر، بكلّ أزقتها وروائح توابلها وأمواج شاطئها وتنويعات سطحها ووجوه أطفالها في بطن السينما لتشاهد غزّة، غزة برمتها، فيلمًا، وتحظى بنهاية سعيدة ولو لمرّة واحدة.
ولكن غزّة تتمنّع وتصرّ على كونها صورة. هذه المدينة التي نشأت فيها تلوّنت وتغيّرت وازدادت اكتظاظًا بالناس والبنادق. ألتقط صورًا فيها وأتمنى لو تتحرك، لو يصحبها الصوت والموسيقى، لكن الصور تظلّ ثابتة. أقلّب الصور على اللابتوب، أطبع بعضها، وتظلّ ثابتة.
صورة لبوابة مستشفى كمال عدوان. صورة لمبنى المخابرات. صورة لسوق فراس. صورة لمعبر رفح. صورة لشارع يافا. صورة لجامعة الأزهر. صورة لمقرّ الأونروا. صورة لصرّافي العملة. صورة لمحلات الشاورما. صورة لشارع جمال عبد الناصر. صورة للميناء.
غزّة مليئة بالصور لكنها خالية من الأفلام. ربما تعوّدت هذه المدينة على كاميرات الصحفيين وصار صعبًا عليها أن تفهم كاميرات الآخرين. أن تستطيع استيعاب الغاية منها. ربما لا تخاف غزّة كل هذا «الأكشن» الحاصل فيها، لكنها تخاف أن يدوّي في أرجائها صوت مخرج واحد يقول: «أكشن».

٩

في الأفلام التي أحمّلها من الإنترنت وأشاهدها في البيت، بعيدًا عن السينما، يضايقني المشهد الذي يظهر فيه رجل وامرأة وقد استيقظا بعد قضاء ليلة مارسا فيها الحب لتبدأ بينهما محادثة تستلزم أن تعدّل الممثلة من جلستها. وعندما تفعل ذلك، تمسك الممثلة الغطاء بيدها كي لا يقع فينكشف صدرها. لم أكن أطيق تلك الحركة.
التفسير الوحيد هو أنها تعلم أن هذا فيلم. أنّ هذا كذب. أن وراء الكاميرا مخرج ومصوّر وطاقم عمل كامل. لا يوجد تفسير آخر. وإلا لماذا ستغطي صدرها عن رجل مارست لتوّها معه الحبّ؟
ليلى لم تكن تمسك بالغطاء.
لا أعرف إذا ما كان ممكنًا إطلاق مصطلح «ممارسة الحب» على ما نفعله أنا وليلى. لا أدخل فيها ولا تدخل فيّ. نظلّ ساعات الليل بطولها معًا في سرير واحد ولكننا لا نصعد السلم إلى آخر درجة.
يمكن القول إننا نمارس كمًّا محمودًا من الحب. لا نكسر قواعدَ ولا يتخلل اجتماعنا نزيفٌ من أيّ نوع.

نتحايل. نتبادل القبل ويضمن لنا شغفنا المتبادل درْءَ كلّ شعور بالغرابة.

رغبت أن أدخل فيها أكثر من كلّ المرات السابقة. لكنني، بالطبع، لم أفعل ذلك. قضينا الليلة منشغلين بسوائل أخرى، سوائل لا تحمل من التعقيد ما يحمله الدم. شعرت عندما استيقظت إلى جوارها بأنّ قدرتي على احتمال العالم باتت أكبر.

ذهبت إلى المطبخ وملأت الغلاية ماءً ثمّ وضعتها على الغاز. بحثت عن فنجانين وأخرجت كيس القهوة الذي جلبته معي. قهوتنا سادة، نحبّها بدون سكر. المطبخ ليس مرتبًا لكنه يؤدي الغرض. الشقّة كلها تؤدي الغرض، تلمّني أنا وليلى مرة أو مرتين في الشهر.

أقول لسامر إنني لا أمانع أن يبقى فيها أثناء وجودنا لكنه يرفض. يغمزني ويقول «عيش أيامك» ويسلمني المفتاح. والداه مقيمان في الإمارات وهو في غزّة لكي يدرس. إنّه «عائد» مؤقت سيكفّ عن كونه عائدًا بمجرّد حصوله على الشهادة. سيغادر غزّة عبر معبر رفح، ثمّ مطار القاهرة وصولاً إلى أبو ظبي، وجهته النهائيّة.

الشقة في تل الهوى وهي مكوّنة من غرفتين وصالة ومطبخ وحمّام. العمارة فيها عشرات الشقق المصممة بحيث لا يشعر أحد من قاطنيها برغبة في التعرف على أحد.

قلّبت القهوة. غليتُها ثلاث مرات. وضعتها على الصينيّة.

توجهت إلى ليلى الـــتي وجدتها متمددة على الكنبة، ترفع أقدامها على الطاولة وتتأمل الســـقف. وضعتُ الصينيّة وبـــدأتُ أصبّ القهوة؛ قليلاً منها في فنجاني، قليلاً منها في فنجانها، وهكذا حتى صارا جاهزين للرشفة الأولى.

- ليه بتصبّ القهوة هيك؟

- مش عارف. إمّي بتصبها هيك.

ترتسم ضحكة خبيثة على محياها فأسأل:

- مالك؟

- لأ. ولا شي.

- عنجد، مالك؟

- كل الموضوع إنّك متأثر كتير بإمّك. انت شغل ايديها.

- كل هاد علشان تعلمت منها كيف أصب القهوة؟

- هاد وغير هاد.

- شو غير هاد؟

- كلامـــك عنها. مرات بحس إنـــه حياتك كلها بتلف حوالين إمّك.

- كلام فارغ! علاقتي عادية بأمي. أقل من عاديّة. أنا ابنها الوسطاني اللّي مش أول العنقود ولا آخره.

- لا مش كلام فارغ. انت عارف أنا عن شو بحكي.

- لأ.

- إلا عارف!

- شو عارف؟

- عارف إنّك ابنها الوســـطاني. إنك مش قُصَي اللّي دايمًا

في الشغل أو مريم اللي طول الوقت قاعدة بغرفتها. عارف إنّك انت أكتر واحد بتقعد معها. أكتر واحد بيراقبها. تضع سبابتها على شفتيّ. تطلب مني، بهذه الحركة اللطيفة، أن أخرس.

ربما يجدر بي أن أخرس.

أشعر وأنا أردّ على تعليقات ليلى حول علاقتي بأمي بأنني أخادع نفسي. بأنّ في رأسي ثقب كبير أحاول سده بأيّ شيء. وما يكدّر صفوي أكثر هو أنني أفعل ذلك وأنا أعي أنني أفعله. يخرج الكلام من فمي ثقيلاً. لزجًا. أعرف أنّه كلام مُفبرك.

وكأنني أطارد شبحًا بمكنسة. أضربه فتمرّ المكنسة منه. ينقسم جسده إلى نصفين ثمّ يعود ويلتحم من جديد. لا يمكن أن تقتل شبحًا بمكنسة. لا يمكن أن تلتقط له صورة. لو كنت قُصَي لجرّبت أن أطلق النار عليه. ربّما يموت الشبح برصاص البنادق مثلما يموت الجميع. لكنني لست قُصَي وليس عندي بندقيّة. لا أملك إلا هذه الكاميرا السوداء الصغيرة وهذا الوقت المسروق مع ليلى ورأسي؛ رأسي الذي لا يكفّ عن التفكير.

ربّما يجدر بي أن أخرس.

١٠

حلّ عيد ميلاد مريـــم في فترة عصيبة. كانت البلد تغلي. تستيقظ غزّة كل صباح على أخبار مزيد من الاشتباكات والقتلى. كان أغلب القتلى يســقطون عن طريق الخطأ. يقفــون في طريق الرصــاص الذي يخترق أجســادهم فيقتلهــم. يتميّز عن الرصاص العــاديّ ويصير رصاصًا طائشًا.

اقترحت أن نحتفل بالمناسبة لاحقًا. عندما تهدئ الأمور. لكــن أمّي أصرت أن نقيم لمريم حفلة عيد ميلاد تدعو إليها كلّ معارفها. قالــت إنّ البيت بحاجة إلى تغيير. إلى ألوان.

أخــذت أمي زمام الأمــور بيدها. لم تنتظــر أن أبدي موافقتي أو أن تبدي مريم حماســتها وهي صاحبة العيد. جلست بجوار الهاتف وصارت تتصل بالمعازيم. تفضّلوا عندنا الثلاثاء القادم. الساعة الثامنة مساءً. نعم عندنا في البيت. حفلة عيد ميلاد مريم. العنوان سهل لا يضيّع أحدًا.

طلبت أمّي من مريــم أن تهاتف كلّ صديقاتها. أن تعزم

حتى البنات الــلاتي لا تعرفهن جيــدًا. رضخت مريم وصارت تكلم صديقاتهــا وتدعوهن إلى الحفلة. كنت أراقب ذلك وأفكر أن أحدًا لن يأتِ. أنّ هذه الحفلة التي ســنعلق من أجلها الزينة ونشتري الكعك والمكسرات ستكون خيبة أمل كبيرة.

كنــت مخطئًا. بــدأ الضيــوف بالتدفق منذ الســابعة والنصف. تحوّل البيت إلى تجمع كبير للصبايا والأمهات. ملأت الأغاني البيت. كانت البنــات يرقصن مع مريم. يمســكن بيديها الاثنتين ويتمايلن أمامها باقتدار. أمّا مريم فكانت تتحرك ببطء. تبتســم للبنات وتهزّ وسطها قليلاً إلى اليمين، ثم قليلاً إلى اليسار.

دخلــت إلى غرفتي وأخرجت علبة الهاتف المحمول من جارور المكتب. وضعتها في كيس مزخرف وخرجت إلى الصالون. كانت مريم تجلــس على الكنبة وتتحدث مع واحدة من صديقتها. قدمت لها الهدية وأنا أبتسم.

- حبيبي علاء. الله يخليلي اياك.

لم أكــن أتوقع أن تقول لي مريم شــيئًا من هذا القبيل. أخذتهــا بين ذراعيّ وحضنتها. لهــا قطعة من قلبي هذه البنت الصغيرة. ومن دون أن أعرف كيف، رحت أتمايل معها على أنغام أغنية لوليد توفيق.

كنت أحرك جســدي كيفما اتفق وأضحك لمريم. كان الجميع يصفّق. أتمايل وألمح أمي بطرف عيني وهي تراقبنا وتبتسم. شعرت لوهلة أنّ كل شيء على ما يرام. أن بإمكاني

الليلة أن لا أفعل شيئًا غير أن أرقص.

«تيجي نقسم القمر
أنا نص وانتِ نص
تيجي نرسم ع الشجر
حرفين أسامينا وبس».

**

كنا جميعًا نرقص في الصالون. حتى أمي كانت تتفاعل مع الأغاني. ترقص وهي جالسة على الكنبة. تهزّ رأسها وتتمايل. لم يسمع أيّ منا صوت باب البيت يُفتح.

فجأة، دخلنا علينا قُصَي. وقف قليلاً يتأملنا ونحن نرقص ونغني. شعرت أنّه يود لو يشتمنا جميعًا. أن يصفنا بالوقاحة. لكن لم تصدر عنه كلمة واحدة. ظلّ واقفًا لدقائق مثل الصنم ثم أشار لي فتبعته إلى غرفته وأغلقت الباب ورائي. رفع يده أمامي وقال لي إنّ علي أن أركز جيدًا فيما يقول.

دير بالك على إمّك وأختك. هذا هو كل ما قاله. دير بالك على إمك وأختك. لم يعطني فرصة لأسأله ماذا يقصد. إنحنى على ركبتيه ثم مد يده تحت السرير وأخرج حقيبة سوداء كبيرة. حملها وخرج.

نادت أمي عليه لكن لم يلبّها. قال لها وهو يتوجه نحو باب البيت إنّه لن يغيب طويلاً. لحقته أمي وحاولت أن تشدّه من ظهره لكنه أفلت منها وغادر. كلّنا سمعنا صوت طرق الباب هذه المرة.

لم تذكر أمي لصديقاتها اللاتي دعتهن إلى الحفلة أنّ لمريم أخًا يعمل ضابطًا في الأمن الوقائي، وأنّه سيقتحم الحفلة فجأة، ويخرج منها فجأة، ويترك الجميع في حالة صدمة.
حاولت أن أشرح للحاضرين ما حدث. إنه قصي. يعاني أوقاتًا صعبة في عمله. معلش. لا شيء يدعو للقلق. الحفلة يجب أن تستمر. هينا نرقص. مريم؟ هل تريدين أن نرقص؟ أين الأغاني؟ من أوقف الأغاني؟
نشيج أمّي المتقطع صار مسموعًا. اعتذر مني الضيوف وراحوا يغادرون البيت في جماعات. أودعهم وأنا أبتسم. مع السلامة. أنا أعتذر. مع السلامة.
أطباق الحلويات في كلّ مكان. بالونات صفراء. بالونات حمراء. بقعة عصير على السجادة. مريم دخلت غرفتها وأغلقت على نفسها الباب. تمددتُ على الكنبة ورحت أفكر في وصيّة قصيّ.
وصيّته؟ هل كانت تلك وصيّة؟
رفعت الهاتف وطلبت رقمه. لم يرد. هاتفته مجددًا. ومجددًا. أشعلت سيجارة. دخنتها وأنا أحدق في صورة أبي. ماذا الذي كان سيفعله لو كان هنا؟ أطفأت السيجارة في طرف الصحن المليء بالفواكه و هاتفتُ قُصيّ مرة أخرى. ردّ عليّ وقال «شو بدّك؟» بنبرة شعرت معها أنه يلومني.
لم أعد أشعر بالرهبة وأنا أكلّمه. ليس قُصَي هذا الذي على الهاتف هو أخي الذي يكبرني بسنوات. إنّه شخص

أهوج خارج عن طوره. شخص أخاف عليه وأخاف منه.
- بدي أفهم شو صاير؟
- الوضع صعب. خلي بالك من أمّك وأختك وبس.
- ليه؟ انت وين رايح؟
- ما عليك.
- قصي انت عارف لو صرلك شي شو ممكن يصير لإمك؟
- قلتلك مليون مرة مش هيصير شي!
لن يحدث شيء. لن يحدث شيء...
الأشياء تحدث؛ هذه هي المشكلة. الأشياء تحدث، تتكوّن، تتوفر من أجلها كل الشروط اللازمة. كلّ المتطلبات. الأشياء تحدث وغزّة أصغر من أن تجهل ما الذي يحدث فيها. في كلّ زقاق من أزقتها. في كل غرفة وفي كلّ بيت. هكذا يربّي الكبار الصغار في هذه المدينة. هكذا يحذرونهم من العيب والحرام.
«غزّة ما بيتخبّى فيها شي».
«هاي بلاد طاهرة الحق فيها دايمًا بيبيّن».
نشيج أمي يعلو وينحو نحو مزيد من الكآبة. أسمعه وقد امتزج بصوت قصي على الهاتف. قلت له إنّ عليه أن يترك هذا الذي هو فيه. أن يعود لرشده. يرد عليّ ولا يرد. هل هو مغيّب؟ ما الذي يحفزه؟ هل هو مقتنع بما يفعل أم أنّه يفعله لأنه اعتاد عليه؟
انتهت المكالمة بيني وبين قُصي. انقطع بيننا الخط. توجهت

إلى الحمام. أدرت مقبض الحنفية إلى اليسار فاندلق الماء. غسلت وجهي عدة مرات وخرجت إلى الصالون. وضعت قطعة من الكيكة في صحن بلاستيكي أبيض ثم توجهت إلى غرفتي.

غـــدًا الأربعاء. أحـــبّ الأربعاء. الأربعاء يوم مســـالم. أشعلت سيجارة وتمددت على السرير ورحت وأفكر في شكل الحياة فيما لو كانت كلّ أيام الأسبوع أيام أربعاء.

II

«أبناء حمـــاس لا يتلجلج في صـــدر أحد منكم شيء. نحـــن على الجادة وهـــم على الضلال. اســـتحضروا معي ســـيدنا أبا بكر وهو يقاتل مانعي الزكاة. أفلا نقاتل من يمنع عن ديننا أئمة المســـاجد فيقتلهم؟ أفلا نقاتل من يبيع فلســـطين؟ أفلا نقاتل من يقاتلنا ويظلمنا ويسفك دماءنا؟

لقد انتهى كل شيء. لم يعد ثمـــة حوار لا في غزة ولا في القاهرة ولا في الخارج. لا نريـــد أن نتحدث إلا مع من يتوب. هي ساعات يا علمانيون وتنتهي العلمانية من غزة ويؤوب الناس،كل الناس،إلى رشدهم بإذن الله.

مـــن أراد أن يكون في أمن وطني يقاتـــل إسرائيل فهو معنا، وإلا فليذهب إلى الجحيم لا نستثني أحدًا. القضية الواضحة اليوم. معركة إســـلام وردة ســـتنتهي بإذن الله لصالح هذا الدين. بدأ العباد يعـــودون لدينهم عبادًا لنا أولي بأس شديد».

١١

الخميس. وحدها العدسات والبنادق تجوب أنحاء المدينة. تلاحق بعضها من شـــارع إلى شارع، ومن مقر إلى مقر. كان النهار حائرًا بين صباحه وظهيرته عندما بدا واضحًا أنّ الذي يحصل لا يشبه ما قبله. الاشتباكات التي اندلعت في رفح انتشرت إلى شمال القطاع ووسطه.

خانني الأربعاء.

بثت إذاعة صوت الأقصى بيان «سلّم تسلم». يدعو البيان شرفاء فتح إلى الانسحاب وتسليم أنفسهم وعتادهم إلى كتائب القسّـــام. قوّات حماس في حالة استنفار قصوى ونبيل عمرو يدعو الرئيس لإعلان حالة الطوارئ.

كاميرتي من نوع كانـــون ١ دي أس مارك ٣. «الشّـــاتر» عمـــودي يمكن تحديد سرعته يدويًـــا أو أوتوماتيكيًا. الشاشـــة كريســـتاليّة بوضوح يصل إلى مائتين وثلاثين ألف بيكسل أمّا الوزن فيصل إلى ١,٢ كيلو جرام. مهمة هـــذه الكاميرا اليوم، كما تقـــول القواعد، هي أن تلتقط أكبر كمّ ممكن ممـــا تفعله البنادق في المدينة. البندقيّة

الأكثر انتشارًا هي الكلاشينكوف روسيّ الصنع.
الكلاشينكوف الروسي يبلغ وزنه ٤,٣ كيلو جرام ومداه الفعّال ٣٤٠ مترًا أمّا مخزنه فيتسع لثلاثين طلقة.
تعلّمت ذلك، رغمًا عن أنفي، من قُصَي. قُصَي الذي لا أعرف مكانه ولا حالته وباءت كلّ محاولاتي للاتصال به بالفشل. هاتفه المحمول مغلق وهاتف مكتبه يرن لكن لا أحد يرفع السمّاعة.
غزّة اليوم مدينة الكاميرات اليابانيّة والبنادق الروسيّة.
أمّا الدم فمحليّ الصنع. من عندنا. لا نستورده. عندنا منه الكثير. دم من جميع الأصناف. من جميع الفصائل.
نزلت درج العمارة الطويل. الكهرباء مقطوعة. أرتدي خوذة واقية وسترة زرقاء مكتوب عليها «صحافة» بخطّ أبيض عريض. وجهتي مقرّ السرايا لقوات الأمن الوطني. غرضي هو التقاط بعض الصور للوكالة البريطانيّة التي أعمل معها. يرافقني زميلان من وكالات أنباء أخرى.
ركبنا السيارة التي كنّا قد ألصقنا،من بعد اختطاف شاليط، حرف الـT مجاورًا حرف الـV على سقفها كي نخفف من احتماليّة أن تستهدفها الطائرات. المسلحون من كلا الطرفين ليس عندهم طائرات. أملنا بالنجاة معلّق على كلمة صحافة المرشوشة بالبخّاخ على جانبي السيارة.
الشوارع خالية إلا من بعض السيارات التي لم يستطع بعدُ أصحابها الوصول إلى منازلهم. أصوات زخّات

الرصاص مسموعة بوضوح تام. زخّات طويلة كثيرًا ما تتشابك فيغدو صوتها إيقاعيًا. يدوس سائق السيارة بقوّة على البنزين. يريد لنا أن نلتقط الصور بسرعة ثمّ نعود. كان خائفًا. جميعنا كنّا كذلك.

عندما وصلنا، كان أوّل ما رأيت تجمهرًا من الأشخاص الذين كلّما اقتربت سيارتنا منهم كلّما اتضح لي صغر أعمارهم. شكّل المسلحون صفًا يمنعهم ويمنعنا من الاقتراب. بدأت في التقاط صور المقر المُخترَق من بعيد. بدا لي أنّ الأمر جرى بسلاسة وأنّ دفاعات هذا المقر الضخم سقطت بسرعة. لا أحد كان يستطيع المرور. يحرس بعض المسلحين المقر أمّا البعض الآخر فينشغل في السجود وإطلاق التكبيرات.

انتبه أحد المسلحين إلى وجودنا فأشار إلى ثلّة من رفاقه. اقتربوا منّا وأمرونا بالانسحاب. رفعنا في وجههم البطاقات الصحفيّة. قال أحدهم بنبرة غاضبة إنّ علينا أن نغادر. لم نجادلهم. كيف تجادل مجموعة من المسلحين؟ ركبنا السيارة واتجهنا عائدين إلى البرج لنفرغ ما صوّرناه ونحدد وجهتنا اللاحقة.

كانت الكهرباء قد عادت. استعملنا المصعد. في المكتب، استقبلي المحرر ببيان وصل عبر الفاكس وجاء فيه أن كتائب القسام تحظر الوجود الصحفي بالقرب من أي مقر أمني أو نقطة اشتباك منذ اللحظة وإلى إشعار آخر. كان المكتب يضجّ بمن فيه. الكل يركض ويدخن ويعبّر

عن رأيه فيما يحدث ويقدّر تبعاتــه. أصوات الرصاص مسموعة وكذلك أثير إذاعة صوت الأقصى. يدور الكلام حول حسم عسكري. يعتبر كثير من الزملاء ذلك مجرد خزعبلات.

أحــاول الاتصال بقــصي. هاتفه لا يــزال مغلقًا. أكرر المحاولــة. ظللت أحــاول حتى صدحــت نغمة الخبر العاجل على إذاعة الأقصى. أرخيت ســمعي والهاتف لا يزال في يدي.

«الله أكــبر الله أكبر. أبشروا يا أحفاد الياســين، أبشروا يا أحبــاب حماس. كتائب القســام تقتحم الآن حصن العلمانيين المنيع. الآن الآن مقر الأمن الوقائي في قبضة رجالات القســام. الآن الآن علم حمــاس يرفرف فوق أسوار الوقائي»

لم يكسر الصمت إلا ســؤال المحرر الانجليزي. «ماذا حدث؟». الذي حدث، حسبما ترجم له أحد الزملاء، أن حماس اقتحمت مقــر الأمن الوقائي في تل الهوى. لكنّ الذي حدث، بالنسبة لي، هو أن إحساسًا عارمًا بالسقوط سرى في جسدي.

كنت أهوي.

كلما حاولــت فتح فمي أغصّ ولا يخــرج الكلام. ماذا حدث لقُصَي؟ هل انســحب؟ أقول انسحب كي لا أقول هــرب. قُصَي لا يحــبّ الهرب. هل يمكــن لمقر الأمن الوقائي الرئيس أن يســقط هكذا؟حاولت أن استجمع

طاقتي. قُصَي له سبعة أرواح. أصدّق ذلك الآن. لن يحدث له شيء. لن يصيبه مكروه.

رنّ محمولي. كان اسم قصي على الشاشة. ضغطت بإصبع يرجف على زرّ القبول وقلت بصوت يحاول أن يبدو متّزنًا: ألو؟

لم يرد بقوله «ألو». ردّ مباشرة بكلمة «اسمع!». قال إن أولاد الشرموطة فعلوها وإنه نجح في الخروج من المقر بعد اقتحامه وإغلاق منفذه على البحر. سيتوجه إلى مصر. سيمضي هناك بعض الوقت ثم يعود. طلب مني، مجددًا، أن أعتني بأمّي وأختي. أعاد كلمة مؤقتًا عدّة مرات. أراد أن ينفي لي حقيقة أنّه يهرب. قُصَي لا يحبّ الهرب.

سيذهب إلى مصر، مصر التي عبرناها «عائدين» قبل أعوام طويلة. لن يظلّ قُصَي من العائدين. سيعود إلى كونه فلسطينيًا خارج فلسطين، حاله حال ملايين اللاجئين. غير أنّه سيمتاز عنهم بأنّ فلسطينيين، لا إسرائيليين، هم الذين يقفون حائلاً بينه وبين «عودته». عودته التي لم تكن، منذ البداية، عودة حقيقيّة.

كان كل من في المكتب يصغي إليّ وأنا أتحدث مع قُصَي. ربّما لأنني كنت أصرخ على الهاتف من دون أن أدري. اقترب مني حسام لمّا انتهت المكالمة. ربّت على كتفي وقال «شد حيلك». كان وقع التعبير عليّ مرعبًا. «شد حيلك» هذه لا تقال إلا في المصائب. في حالات الوفاة. لكن قُصَي لم يمت، قُصَي ذاهب -مؤقتًا- إلى مصر؛ إلى أنّ

يجدوا حلاً لكلّ هذا الذي يحصل.
ضجّ المكتب بالنقاش من جديد. يقول المذيع على إذاعة الأقصى إنّ الأجهزة الأمنيّة تلفظ أنفاسها الأخيرة. على شاشة التلفاز مشاهد لسيّارات يملأها المسلحون بما يمكن أن تتسع له من أثاث وقرطاسيّة وأجهزة تكييف.
حاول البعض أن يقترح جولة تصوير لكنّ أغلب الموجودين ارتأوا أنّ من الخطر النزول إلى الشوارع . يجب أن ننتظر حتّى «نعرف راسنا من رجلينا».
عندما بدأت تظهر على التلفاز مشاهد لإعدام قيادي في فتح وهو يتدلّى من أيدي المسلحين، جسدًا ينزف ويتمزق، قمت من على الكرسي وتوجهت نحو النافذة. لم أرغب في رؤية التسجيل. إحساس عميق في أحشائي دفعني كي أبتعد عن الشاشة.
فتحت النافذة وأشعلت سيجارة.

١٢

يختلط صوت البحـــر بصوت الرصاص. بحـــرٌ وبنادق. الشـــوارع خالية. هاتفتُ مريم لأطمئن عليها وعلى أمّي. قالت لي إنّها في غرفتها طوال اليوم. أخبرت مريم أن تظلّ متنبهة، وأنني سأعود في الليل إن سمحت الظروف، وإن لم تسمح فسأنام في المكتب.

لم أكن يومًا منتميًا لمشروع ســـياسي لكنني شعرت، بعد إنهاء المكالمة مـــع مريم، أن غزّة تغير جلدها وترمي الجلد القديم في البحـــر. تتخلى عنه وكأنه لـــم يكن جلدها لسنوات.

كنت أشـــعر بمذاق مرّ في فمي. أشـــعر به مع أنني لست مقاتـــلاً ولا عضوًا في حـــزب أو تنظيم. لا أعرف كيف أفسّر ذلك.

فجأة، لمعت نقطة سوداء في آخر الشارع وراحت تَكبُر حتى صارت جيبًـــا. كان الجيب يتجه نحو البحر قبل أن يقطع عليه الطريق جيب آخـــر لونه أقرب إلى الأخضر المحروق.

كان الجيبان يبعدان عن بعضهما البعض مسافة قصيرة. وكلاهما ثابت في مكانه. في اللحظة التي دفعني فيها حدسي الصحفي لأستدير وأحضر الكاميرا من على المكتب كان باب الجيب الأخضر قد انفتح.

رفعت الكاميرا قبالة عيني فصرت أرى المشهد بعينها. لا أرى إلا ما تراه الكاميرا. أضبط «الزوم» وأراقب. تبع المسلّح الذي نزل من الجيب ثلاثة مسلحين آخرين. كلهم وجهوا أسلحتهم في اتجاه الجيب الأسود الذي كان ما يزال رابضًا في مكانه. تمنعني المسافة من رؤية الوجوه. من رؤية الملامح.

انتظرت بلهفة أن يبدأ تبادل إطلاق النّار. من زاويتي هذه، سآخذ صورًا ممتازة، صورًا تلخّص كل شيء.

بدأ أحد مسلحي الجيب الأخضر يقترب من الجيب الأسود. يمشي ببطء شديد ويشير بيده في اتجاهات مختلفة. انفتح باب الجيب الأسود فجأة وخرج منه رجل يرتدي ملابس مدنية. لم يكن لونه في عدسة الكاميرا موحدًا مثل البقيّة.

ثنى المسلح إحدى قدميه وارتكز على ركبته. خرج من الجيب الأسود شخص آخر. وقبل أن يغلق وراءه الباب، سحب مسدسًا وبدأ يطلق النار.

لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق.

المسلّح الذي اقترب من الجيب الأسود كان أوّل الضحايا. تمترس الطرفان، كلٌ وراء مركبته. لم يدم الاشتباك

طويلاً. كان ثمّة الآن جثتين غارقتين في الدم إلى جوار الجيب الأسود. مع كلّ رصاصة كانت تنطلق، كنت أضغط الزرّ وأصوّر. شعرت مع أصوات «الشاتر» المتلاحقة أنني جزء من المعركة.

ما أسهل القتل. ما أسرع الموت. لم يلزمني سوى أن أضغط على زرّ الكاميرا لأوثّق ما حصل. أمّا المسلّح فلم يلزمه إلا أن يضغط على الزناد.

بدأ الصحفيون يتدافعون باتجاه النوافذ. راقبوا معي مشهد جرّ المسلحين للجثث من جوار الجيب. جرّ المسلحون الجثث إلى طرف الرصيف وتركوها هناك تنزف. قاتلٌ يجرّ قتيلاً. كان يمكن، لو اختلف اتجاه الرصاص، أن يجرّ المقتول القاتل.

لم يقترح أحدٌ استدعاء سيارات الإسعاف إلا بعد أن وزّع المسلحون أنفسهم على المركبتين، حمّلوا صديقهم المقتول، وغادروا المكان. حملوه لأنّه منهم، من جماعتهم.

نزل بعض زملائي لتصوير نقل الجثث إلى المستشفى في حين آثرت أنا البقاء والبدء في تفريغ الصور ومناقشة طريقة عرضها مع المحرر. كانت الحصيلة حوالى ستّة وأربعين صورة. بعد التعديلات والاختيارات المبنيّة على أساس درامي واستبعاد الصور المهتزّة ظلّت أمامي سبع صور: قطع الجيب الأخضر الطريق على الجيب الأسود. لحظة الندية. فتح الأبواب. المسدس. الاشتباك. ومن ثمّ خيطا الدم. قصّة صحفية مصورة من الطراز الأول.

شرعت في كتابة الفقرات التي سترافق عرض الصور على موقع الوكالة. كتبت اسم الشارع، الساعة، ووصفت الصور بأنّها تكثيف بصريّ للاشتباكات المسلحة فتح وحماس. كنت أعلم أنني أخاطب جمهورًا عالميًا قد لا يعرف تفاصيل هذا الاحتدام العسكريّ في غزة والروافد التي صبّت فيه. لكنني كنت متأكدًا أن أحدًا لن يجد صعوبة في فهم الصور. هذه صور حماسيّة. صور لأشخاص كانوا واقفين، ثمّ وقعوا على الأرض.

وضعت الصور والنصوص في مجلّد واحد على سطح المكتب. فتحت صفحة البريد الإلكتروني وأرسلته، مضغوطًا، إلى المحرر الذي كان متلهفًا لبدء العمل عليه ونشره على الموقع. تمطّيت على الكرسي. لم يحل المنع الأمني بيني وبين تحقيق إنجاز صحفي في آخر المطاف.

عدت إلى النافذة. كان الشارع خاليًا. خيوط الدم المتعرّجة لا تزال مرئيّة. أمّا الجثث فلم تعد موجودة. كانت الشمس تقترب من أن تختفي وراء البحر. أشعلتُ سيجارة وبعد المجّة الأولى رنّ الهاتف المحمول وظهر، مجددًا، اسم قُصَي على الشاشة.

١٣

عامر يقــول أنني لم أكن لأغير في الأمر شــيئًا لو كنت أعلــم. هذه طريقتــه الوحيدة في التخفيــف عنّي. كان يكرر جملته هذه على مسامعي في أماكن مختلفة، على شاطئ البحر وفي المقاهي وفي ســيارات الأجرة. كررها حتى بتّ حين يفتح الموضوع أفقد القدرة على ســماعه. أرى شــفتيه تتحركان لكن من دون صوت. ربمّا كان يظن أنني بصمتي أتفق معه فيمــا يقول ولهذا لم ييأس. وربّما كان يعــرف أنّ كل ما يقوله هراء لكنه كان يعجز عن قول أيّ شيء آخر.

ما الذي يعنيــه أنني لم لأكن أغيّر في الأمر شــيئًا لو كنت أعلم؟ لو كنت أعلم لنحّيت الكاميرا جانبًا ونزلت راكضًا إلى الشارع. لهرعت إلى مكان الحدث. لاستعطفت المسلحين واســتحلفتهم بالله وبأمهّاتهم. بكلّ ما هو عزيز عليهــم. لحدثتهم عن قُصَي وقلــت لهم إنّه مجرد موظف لا دخل له وإن له أختًا صغيرة وأمّا ســتموت من حزنها عليه لو مسّه مكروه.

لو كنت أعلم لمتّ مع كلّ الذين ماتوا. وقتها، كان الاتصال الهاتفي سيتم مع مريم أو مع أمّي، لا معي. سيرنّ هاتف البيت. ترفع مريم السمّاعة فيجيئها صوت الطبيب ويطلب منها، بنبرة هادئة، التوجّه إلى المستشفى حيث يرقد أخواها وقد فارقا الحياة.

- متأكد إنهم قصي وعلاء؟

- آه. الهويات معنا. أنا بكلمك من جوال علاء.

ستحاول مريم تمالك نفسها، لكنّها لن تقدر على ذلك. كيف ستخبر أمّي؟ كيف سيطاوعها قلبها؟ هذا السيناريو مرفوض. لا. ليس ممكنًا أن أضع مريم في موقف كهذا. لو كنت أعلم لمتّ مع قصي أو أنقذته من الموت. لا أعرف كيف. سيرن هاتف البيت وسترفع أمّي السماعة. سيخبرها الطبيب مباشرة بأن ولديها قد ماتا. قتلا. لن تحتاج وسيطًا يخبرها. سيصل إليها الخبر مباشرة.

ولداها دفعة واحدة؟ أنا لست من خرجت به من الدنيا، لكنني ابنها. أن تفقدني مع قُصَي، بكرها، في نفس الاتصال الهاتفي؟ لن تتحمل أمي صدمة كهذه. ستموت على الفور وتنتقل إلى العالم الآخر. وهناك، في العالم الآخر، ستعثر عليّ أنا وقُصَي. ستركض في اتجاهنا ثمّ تتفحص بأطراف أصابعها كلّ الأماكن التي اخترق منها الرصاص جسد قُصَي وتسأله إن كان ما يزال يشعر بالألم.

لم يكن ممكنًا أن يجري الأمر بشكل مختلف. لقد كان

محتمًا. لا أستطيع تصوّره وقد جرى بشكل مختلف لكنني، في ذات الوقت،ما زلت أعجز عن التسليم به.

- علاء؟

- أيوة

- شو بيقربلك قُصَي حامد؟

- أخوي الكبير. ليه؟ شو في؟

- أخوك بالمستشفى. البقية بحياتك.

- نعم؟

- أخوك تـــوفى .لقينا هويتـــه في جيب البنطلـــون. أنا بكلمك من جواله.

أهـــرع إلى مكتب المدير. آخذ مفاتيح ســـيّارته دون أن أســـتأذنه. أدوّر المحرك. هذه المـــرة الثانية التي أقود فيها ســـيارة. أركنها قبالة المقهى. المقهى الذي أتردد عليه أنا وعامر. لا علم على ســـارية المدرســـة المقابلة. أركض إلى الاســـتقبال. مســـلحون هنا أيضًا. مقنّعون تلتف حول جبهة كل واحد فيهم قماشـــة خـــضراء مكتوب عليها: كتائب الشهيد عز الدين القسّام.

مسلحون في كلّ مكان.

أسأل عن قُصَي. أســـأل كلّ من يقابلني. أطبّاء وممرضون وأشخاص عاديون. أسأل وينتهي بي المطاف مع المسعف الذي كان قد نقـــل جثته. رجلٌ قصير يرتـــدي صدّارًا برتقاليًا. يشير لي أن أتبعه إلى الثلاجة.

الثلاجة. قُصَي في الثلاجة. أكاد أفقد القدرة على التنفس.

يدوّر المسعف المقبض فيصدر عنه صوت مخيف. يفتح الباب المربّع فتتكشّف طاقة معتمة. أشعر بالبرد. يمدّ المسعف يده فيسحب لوحًا حديدًا إلى الخارج. يسحبه مطولاً فتظهر معه تقاسيم جسد بشريّ تغطيه قماشة بيضاء. يرفع الرجل ذو الصدّار البرتقالي القماشة عن وجه القتيل. ألقي نظرة أولى. إنّه قُصَي. أتكوّر على نفسي وأنفجر باكيًا.

- شد حيلك

هذه ثاني «شد حيلك» اليوم.

لقد قتلوا قُصَي. تسع رصاصات اخترقت جسده في مواضع متعددة. قدماه، صدره، وواحدة في رقبته. لم يمهلني المسعف، ومعه رجل آخر، حتى شرعا يتحدثان عن ضرورة أن أؤكّد لهما، بتوقيعي على ورقة ما، أنّ هذا أخي الأكبر.

حاولت أن أتماسك وأنا أمسك بالقلم. نعم هذا قُصّي. أنا سأوقع على أنّ هذا هو قُصّي. أنّ هذا الجسد الهامد هو جسد أخي قُصَي. أنّ هذا هو أنفه، وهذه هي كفّ يده. هذه حواجبه وهذه عيونه.

- نقلناه مع كمان حد. بتتخيل ممكن تتعرف عليه؟

- وين كانوا؟

- في آخر عمر المختار. مرميين جنب الرصيف. شد حيلك.

لم أتمكّن من إلقاء نظرة على القتيل الثاني.

القتيل الذي صوّرته، الدم الذي وثّقته، المشهد الذي

وقفت بعيدًا عنه أصوّر كان مشهد مقتل قُصَي. صوّرته وهو يموت.

***

عندما استيقظت، كان ثمّة إبرة مغروسة في يدي، وكيس شفّاف معلّق على عمود معدني ينتصب إلى جواري. قال لي الممرض إنني أغمي عليّ. كانت رؤيتي ضبابيّة. جدران خضراء تحاصرني من كلّ اتجاه. جدران خضراء قبيحة. تحسّست جيوبي باحثًا عن علبة السجائر فلم أجدها. انزع هذا عنّي، قلت للممرض وأنا أشير إلى الشيء المغروس في يدي.

خرجت إلى ساحة المستشفى. الجو حارّ وجاف. المسلحون في كلّ مكان. الصحفيّون في كلّ مكان. عثرت على نعيم واقفًا وسط الساحة. يمسك في يده الكاميرا خاصته. طلبت منه أن يقود بي السيارة إلى المكتب. لم أنطق بكلمة طوال الطريق.

لم يحاول أحدٌ من المتواجدين في المكتب، ولا حتى المحرر، سؤالي عمّا ألم بي. توجهت إلى كاميرتي فحملتها وألقيت بها من النافذة. تأملت سقوطها. شاهدتها وهي تتناثر في كلّ اتجاه. تتحوّل إلى أشلاء. كانت تراودني فكرة أن أرمي نفسي وراءها لكنّ المحرر أمسك بذراعي وطلب منّي الجلوس.

لم يدم جلوسي كثيرًا، ولم أخبرهم سوى أنني فقدت قُصَي. الكلّ تعاطف معي وربّت على كتفي. أمّا المحرر

فأصرّ على أن يوصلني بنفسه إلى البيت حتى أنقل الخبر إلى أمّي ومريم وأشرع في الترتيب لإجراءات الدفن.
في البيت، أخبرت في البدء مريم. أخبرتها في المطبخ. قلت لها: «قتلوا قُصَي». إنّه في المستشفى. في ثلاجة الموتى. لم أقل لها كيف أنني وقفت على ارتفاع عشر طوابق أصوّر موته وأفكّر في جوائز القصص الصحفيّة.
لم أقل لها إنني، لو لم تأخذني الإثارة، لكنت ربّما تعرّفت عليه. لكنت رأيته من بينهم. لكنت هرعت كي أنقذه أو أموت معه. بكت مريم بكاءً صامتًا. بدون نشيج أو حشرجة.
أما أمّي فعذابي الأعظم، حين أخبرتها وحين ذهبت معها إلى المستشفى وحين وقفت إلى جوارها بعد الدفن فلم يكن رؤيتها تتفجّع وينفطر قلبها على ابنها الأوّل بل سرّي المخفي عنها بأنني أملك صورًا لموته. بأنني كنت هناك. بأنني صوّرت ما حدث وأرسلته لكي ينشر.
بأنني كنت متحمسًا وأنا ألتقط الصور.
كانت الأيام التي أعقبت الدفن أيامًا ثقيلة وغريبة. لم أغادر البيت لأسابيع. كنت عاجزًا عن التعامل مع العالم. أغرقت نفسي في القهوة والسجائر. كنت أهاتف ليلى في أوقات متأخرة من الليل دون أن يكون عندي ما أقوله لها.
في الدقائق القليلة التي تقضيها أمّي خارج غرفتها ويحدث، مصادفة أو عن قصد، أن تلتقي أعيننا،

يتملكني إحساس بأنها تعاتبني. لكن على ماذا؟ ربّما خطر ببالها أني لي دخلاً بما حصل. ولكن كيف؟ أنا ابنها المصوّر الأوسط الذي لا يتحدث كثيرًا ولا يملك موقفًا حاسمًا في السياسة والمعارك. مكان عملي بالقرب من الميناء وقصي كان يداوم في تلّ الهوى.

هل تعتقد أنني قتلت قُصَي؟ أنني السبب في وفاته؟ أنني أنا الذي كنت يجب أموت بدلاً عنه؟

صار لأمّي وجهًا آخر. عيناها فقط ظلّتا مثلما عرفتهما على الدوام. عينان غارقتان في الحزن. الصرخة التي أطلقتها عندما أخبرتها أن قُصَي قد مات عشّشت في رأسي وفي كل ركن في البيت. في التحف، في مصابيح الإنارة، في الصور المعلقة، في الستائر وفي السجّاد.

وماذا عنّي؟ بماذا يتوجب عليّ أن أشعر وقد صرت الآن ابنها الوحيد؟بماذا يتوجب عليّ أن أشعر عندما أفكر أن قُصي صار له مكان ثابت لا يتغيّر؟ قبر أزوره وأمسح عنه التراب. قبر معتم يتمدد فيه قُصَي الذي قتلته مدينة الزفت هذه.

**

لم يعرف القصّة كاملة إلا عامر وليلى.

كلّما تأملت في عيون عامر وهو يحاول أن يخفف عنّي كلّما شعرت أنّ جزءًا من ضيقه بما حداث نابع من عجزه عن أن يكون على سجيته أمامي. كان ممنوعًا عليه أن يبدي فرحه بما سمّوه لاحقًا حسمًا عسكريًا.

كانت تجول في خاطري فكرة أن أسمح له بأن يخرج قليلاً عن أدبه. أن يتخلى عن هـذا الدور الهادئ الذي يؤديه. أن يشـتم الأمن الوقائي وفتح وأجهزة السلطة. أن يبدي سـعادته بكلّ ما حدث في حزيران. سعادته التي كان يخفيهـا كلّما تقابلنا. لكنني كنت أضعف من أن أقدم له هذه الخدمة.

أمّا ليـلى فكانت تضمّني مطولاً وتجـوب بيدها ظهري. أبكي في حجرها كطفل صغـير وتبكي معي. بقينا على هذا الحال لأسابيع. نلتقي في شقة سامر كلّما سنحت لنا الفرصة.

قلّ كلامي معها حتى كاد ينعدم. كنّا نتواصل عبر الرسائل القصيرة. نسـأل بعضنا عن أوقـات فراغنا ونتفق على اللقاء في تلّ الهوى. حسـنًا، ليس ذلـك دقيقًا تمامًا. أنا كنت أسألها عن وقت فراغها، عن إمكانية أن تقتطع من يومها المليء بالانشـغالات والأهل والأصدقاء والدراسة والكتب بضع ساعات تقضيها معي.

أنا كنت، على الدوام، فارغًا صارت كلّ أوقاته أوقات فراغ. تأتي ليلى وتحضر معها الطعام والسجائر والقهوة. أنا أجيء بي، بكمّ الأسئلة الهائل في رأسي وبنسخة مفتاح الشقّة. أدخل وأتعرّى ثم ألقي بنفسي في حجرها.

عندمـا تمشي ليلى حافية، يصدر عـن قدميها أصوات طقطقة. أنا أحبُّ هذا الصوت وأحـبّ كيف أنه إذا ما انخفضت حدّته فذلك أن ليلى تمـشي بعيدًا عنّي، وإذا

ما ارتفعت فذلك فيعني أنها تمشي في اتجاهي. كما وأنني أحبُّ ليلى. ليلى في حدّ ذاتها.
لم يكن ممكنًا لولاها أن أنجـــو. أن أتعلّم كيف أعيش مع حزني على قُصَي الذي قتلوه وتركوه مرميًا في الشارع. قُصَي الذي صوّرته وهـــو يتحوّل إلى جثّة. قلت ذلك لها. قلت لها إنني أحبُّها.
شعرت أنّ شيئًا ما في داخلي قد انطفأ. أن حفرة قد ردمت. دخلت عليها المطبخ وهي تغلي ركوة القهوة. أمســـكتها من كتفيها ونظرت في عينيها. حدّقت فيهما وكأنّ حياتي كلّها تعتمد على ذلك وسألتها:
- ليلى، تروحي معي ع السينما؟

تمّت